سبينوزا كفيلسوف سياسي

د.باقر إبراهيم حسين الزيدي
جامعة واسط- كلية الآداب

(إن لم تكن سبينوزيا فلن تكون فيلسوفا على الإطلاق)

هيغل- تاريخ الفلسفة

ان سمعة سبينوزا كمفكر سياسي في الأوساط الفلسفية في بلادنا العربية ناهيك عن الأوربية، ولفترة ليست بالبعيدة ، تكاد إن لايكون لها ذكر، لأنها محجوبة تماما بسمعته كمفكر ميتافيزيقي عقلاني النزعة .

فلم يكن في الوسط الأكاديمي قبل نصف قرن من يذهب في دراسته عن سبينوزا إلى ابعد من دراسة كتاب الأخلاق وبالأخص القسم الأول والثاني ،في حين نجد اليوم اهتماما متناميا ليس بالجانب الميتافيزيقي من فلسفته بل بفلسفته السياسية،وعلاقتها بالمشاكل المعاصرة للنظريات السياسية والديمقراطية ،على الأقل منذ ستينات القرن الماضي وذلك بفضل الماركسيين الفرنسيين .[١]

لذا يعد البحث في فلسفة سبينوزا السياسية من الأمور التي تتطلب من الباحث ترويا كبيرا ،لأنها ليست بالصريحة أولا ، وثانيا تتطلب المقارنة مع من سبقه ،لأنه لم يكن في هذا الجانب بالذات بعيدا عن النظريات السياسية التقليدية التي سادت أوربا في القرن السادس عشر والسابع عشر.

وهذا الغياب في تغطية هذا الجانب الحيوي من فلسفة سبينوزا ،لم يقتصر على المؤلفات التي تؤرخ للفلسفة بشكل عام ،بل نجده في أفضل كتاب عنه في المكتبة العربية ،اقصد كتاب الدكتور فؤاد زكريا (اسبينوزا) والذي يكاد ان يكون الوحيد تقريبا حسب علمي ان تغاضينا عن الكتيب المترجم عن الفرنسية ،حيث يقول الدكتور فؤاد مبررا ذالك :

ان البحث التفصيلي في النظريات السياسية ،من حيث هو ينتمي الى مجال العلوم السياسية ،يخرج بنا عن النطاق الفلسفي الذي حددناه لكتاب كهذا ...ان البحث في تفصيلات مذهبه السياسي فهو بطبيعته خارج عن حدود هذا الكتاب .[٢]

لكن هل هذا مبررا كافيا ؟ لا أظن ذلك ، لان الكتاب يفترض به ان يغطي كل جوانب فلسفة سبينوزا ،وبالطبع هذا يشمل السياسي منها .

لكن الأمر ليس كذلك تماما في الواقع لماذا ؟ لان سبينوزا لم يكن اهتمامه عارضا بالفلسفة السياسية ،بل كان جزءا مهما من فلسفته ،وقد كرس الكثير من وقته وجانب

لابأس به من كتاباته لمعالجة ،الإشكالات السياسية والقانونية لقيام الدولة وعلاقتها بالمجتمع .

وما قدمه سبينوزا من أراء سياسية لها – بنظر الكثير من الباحثين - مازالت لها إلى ألان قيمة فلسفية ونظرية معتبرة.[٣]

اذ يمكن ان تعد كتابات سبينوزا في الفلسفة السياسية ولاعتبارت كثيرة ،كمثال نموذجي من فلسفة التنوير الاوربية ، فقد رفض التفسير الغائي اللاهوتي للطبيعية والمصير البشري ،وموضعته في السياسية العملية ،انتصارا للفهم العلمي العقلاني الذي كان متمحورا في ذلك الوقت حول اطروحة العقد الاجتماعي ان التنظيم السياسي للمجتمع هو ليس شيئا فطريا بالنسبة لسبينوزا ،- كما كانت تذهب الى ذلك الفلسفة اليونانية بشكل عام ،إذ ان الإنسان بنظرها هو حيوان اجتماعي بالطبع – بل ان النظام السياسي ومن خلفه التنظيم الاجتماعي ، هو شيء مصطنع او"مصنوع "و"مصمم" من قبل البشر لغايات محددة . لكن مايعيق فهمنا للمجتمعات بهذه الصورة هو عدم فهمنا للطبيعة البشرية أساسا ،هذا الفهم للطبيعة البشرية هو الدعامة التي تستند عليها كل فلسفة سبينوزا السياسية ان واحدا من اهداف كتا بات سبينوزا السياسية هو ،مركزة دور العواطف البشرية كمحفزات للسلوك والدوافع البشرية، ان السلطة السياسية هي شر لابد منه ، والبشر غير قادرين على البقاء من دونها . لكنه لايبالغ في اهميتها ، فهي لاتزيد عن ان تمنع الفوضى والقتل العشوائي او مايسمى "حالة الطبيعة " المفهوم الذي كان منتشرا بشكل واسع في النظريات السياسية وقت سبينوزا .وهو تأثر بهذه الكتابات إلى حد بعيد وقدم أيضا نقدا قويا للفهم العادي لمفاهيم مثل الحق والواجب ،وتفسيره للمجتمع المدني كلها مؤسسة على سايكلوجية واقعية سعى الى تاسيسيها في كتابه الاشهر "الاخلاق " كل هذه الاراء تشكل اسهاما فكريا لايمكن اغفاله في تطور المؤسسات الدستورية وحكم القانون في اوربا . ولكي نموضع بدقه كتابات سبينوزا السياسية ،ساقدم وبأختصارالخلفية التاريخية لهذه الكتابات .ثم السياق اللاهوتي – السياسي لها في "االاقاليم المتحدة" وهو الاسم الذي اطلق على مجموعة الاراضي المنخفضة بعد اتحادها وتشكيلها جمهورية. والتي هي حاليا هولندا التي تعتبر نفسها الوريث الشرعي لهذه الجمهورية .وهو الوقت الذي كتب سبينوزا فيه مؤلفاته جميعها تقريبا ، ثم الخلفية الفلسفية لها.وذلك قبل استعراضنا لأطروحته السياسية الأساسية ، إي سيكون الترتيب كالتالي .:

١- الخلفية التاريخية .

٢- الخلفية الفكرية .

٣- الملامح الأساسية لفلسفة سبينوزا السياسية .

أولا- الخلفية التاريخية:

ربما تعد هولندا اكثر البلدان الاوربية تسامحا في بداية العصر الحديث ،حيث اصبحت ملجأ للمفكرين الاحرار ،وللاقليات الدينية ،اذ اراد الهولنديون تأسيس هويتهم بعد ان نالوا استقلالهم من اسبانيا على التسامح وحرية الفكر والعقيدة . وكانت الجمهورية الوليدة تمنح جميع الاديان والطوائف حرية كبيرة . صحيح ان المذهب المسيطر كان هو المذهب البروتستانتي بتعاليم "كالفن " الا ان بقية المذاهب وبالاخص المذهب المنافس اي الكاثوليكي الروماني كانت له حرية كاملة في التبشير وممارسة الشعائر والعبادة .وهو امر لم ان تعدد الطوائف الدينية في الجمهورية الوليدة وجو التسامح فيما بينها هو امر يكاد يكون معدوما في بلدان القارة الأخرى ،التي في معظمها كانت تتبنى مذهبا بعينه وتفرضه على الناس باعتباره هو مذهب الخلاص والنجاة .هنا وجد سبينوزا حريته ،مثلما وجد ديكارت ذلك قبله لكن نزاعات القرن السابع عشرالدينية والرفض المتبادل من قبل الطوائف الدينية لبعضها البعض في عموم أوربا قد ترك ضلاله على التسامح الديني الهولندي .لذا فقد كانت المشاحنات الدينية جزءا مهما من السياق الذي كتب فيه كتابيه(رسالته لاهوتية سياسية) و(رسالته السياسية) وهما الكتابان اللذان عبر فيهما عن اراءه في الدين والسياسة باستفاضة.

أن المشهد العام للقرن السابع عشرفي اوربا كان محكوما بالانشقاقات الدينية الكثيرة منذ ان قام لوثر بحركته الاحتجاجية الاولى وولادة البروتستانتية . وسرعان ما تتخذ هذه النزاعات الدينية طابعا سياسيا . وعلى الرغم من حدة النزاعات الدينية إلا أنها لم تصل إلى مرحلة الصدام في هولندا لكنها كانت مؤثرة على الحياة العامة بكل تأكيد .

ففي بداية القرن كان رجل الدين المتحرر هو وإتباعه (جاكوب ارمينوس١٥٦٠ -١٦٠٩) يدافع عن التسامح الديني وعن خلاص الفرد على اساس ان الايمان هو تعبير عن ضمير الفرد ،وليس نتيجة للسلطة القسرية للدولة او الكنيسة .رافضا مبدأ كالفن بأن الله يختار من يشاءوبدون شروط بعض الناس من اجل الخلاص ،ويزعم كالفن ان الله ابرمه بينه وبين نفسه .يصعب علينا نحن الفانين فهمها .في حين ان(ارمينيوس) كان يرى ان الاختيار يكون مشروطا بالايمان . وبذلك ابتعد عن التفسير الكالفني الارثوذكسي الذي كان من اتباعة اصلا .

وحينها تصدى له (الجوماريون) أتباع (فرانسوا غومار١٥٦٣-١٦٤١) الكالفني ذوي الميول المحافظة وهو ماولد نزاعا دينيا في هولندا وان لم يكن دمويا كما كان يحصل في باقي انحاء اوربا . وهو ما استدعى الى عقد مجمع كنسي لفض النزاع لكن موت ارمينوس المبكر حال دون عقده وقد تغلب هؤلاء بعد ان اقنعوا الحاكم

العام واحد الامراء بهرطقية اتباع ارمينيوس ومن ثم اقصوا من المجمع الكنسي الهولندي .[٤]

وشهد النصف الثاني من القرن السابع عشرنزاعا سياسيا- دينيا في "المقاطعات المتحدة"- الاسم الرسمي لهولندا في ذلك الوقت - كان طرفاه كل من "يوهانس كويكسن"وهو رجل دين متحرروواستاذ في الوقت ذاته في جامعة ليدن ، والثاني هو (كاسبرس فويتوس) عميد جامعة (ا وتريخت) وقد بدأ النزاع في البداية حول الامور الدينية الغامضة،ولكنه تطور الى نزاع سياسي وثقافي كبير . فقد قاد عميد اوتريخت هجوما لاهوادة فيه على الفلسفة الديكارتية وعلى من سمح بتدريسها في الجامعات ، لانه كان يرى ان العلم الذي تروج له هذه الفلسفة ،هو في اساسه علما ماديا يروج لنظرة آلية عن الكون وهو ما يهدد الكنيسة واسس الدين المسيحي وتعاليمه . وانتهى الامرالى ان سبينوزا وفلسفته لم تلعن من عميد جامعة اوتريخت وحسب ، بل حتى من قبل المفكر المتحرر (يوهانس) كي يعطي الانطباع بأنه بعيد عن هذه الفلسفة لينجو بنفسه .[٥]

وإذا أضفنا الى هذا ان سبينوزا نفسه كان مطرودا من قبل مجتمعه الديني من جراء جرأته الفكرية وعدم قناعته بالتعليم والعلم التقليدين لكنه تحمل هذا الطرد برصانة وهدوء .

على العكس من ابن ديانته المتنور (اوريل دي كوستا) الذي طرد هو الاخر من الطائفة لأسباب فكرية . فقدكان ينكر خلود الروح وينكر اعتبار التوراة كتاب موحى به .

ولقي نتيجة ذلك الطرد ألوانا شتى من الاحتقار والمذلة , فكان اليهود يبصقون في وجهه ويلقون على بيته القاذورات والجيف واحتمل الرجل كل ذلك ،وبعدها طلب الغفران لكن حملات الكراهية والاحتقار استمرت رغم ذلك ،فطلب المغفرة مرة ثانية فطلبت منه السلطات اليهودية ان يعترف أمام الجميع بذنوبه وخطاياه ،ففعل ،ثم جلد امام هذا الحشد تسعا وثلاثين جلدة وأخيرا طلب إليه ان يركع أمام المعبد ،فمر الجميع من فوقه إمعانا في إذلاله ،وكان ذلك اكثر مما تتحمله أعصاب الرجل فعاد الى داره وهو في اشد حالات النقمة والسخط ،وكتب رسالة سجل فيها كل مامر به ،ثم اطلق على نفسه النار ومات لساعته .[٦]

وهو امر ترك في نفس سبينوزا اثرا كبيرا ولكن ليس بشكل مباشر اذ ان دي كوستا عندما اقبل على الانتحار لم يكن سبينوزا قد بلغ العاشرة من عمره . اذ ان دي كوستا انتحر سنة ١٦٤٠.

لكن الحادث الذي اثر به بشكل مباشر هو موت صديقه "أدريان كور باخ " في السجن فقد كان له اثر مباشر اكثر من الحادث الاول لانه معايش له ، فقد استدعي كور باخ للمثول أمام إحدى محاكم أمستردام ١٦٦٨(بتهمة دأبه على معارضة اللاهوت السائد، وسعى أحد القضاة إلى توريط سبينوزا في القضية باعتباره مصدر

هرطقة كورباخ، ولكن هذا أنكر أية علاقة لسبينوزا بالأمر، فأنقذ الفيلسوف. ولكن حكم على المفكر الشاب بالسجن عشر سنين، حيث قضى نحبه بعد أن أمضى فيه خمسة عشر شهراً. [٧]

ومن هنا ندرك لماذا كان سبينوزا متانيا في طبع مؤلفاته..وكان "ادريان" هذا قد نشر كتابا سخر فيه من كل المعتقدات الدينية عند مختلف الطوائف وانكر الوهية المسيح ،وانكر المعجزات ،وبثبات قوانين الطبيعة .

مشددا على ان الله هو الطبيعة - وهذا هو جوهر مذهب سبينوزا - لكن الكالفانيين اشتكوه ليظهروا بمظهر الحريص اكثر من الطوائف المتنافسة على العقائد الراسخة [٨].

ومن الأمور التي أثرت في مسيرة سبينوزا الحياتية والفكرية معا ،والتي ادت الى تحرره الفكري ،لايمكننا ان نغفل المدرسة التي كان يديرها في أمستردام (فرانس فان دن) وهو طبيب متنور وليبرالي التفكير ،وغرامه بابنة صاحب المدرسة ،لكنه هزم امام منافسة زميل له اكثر غنى منه..وهو أمر ترك غصة في نفسه وجعلته يميل إلى العزلة فيما بعد لكن في هذه المدرسة تعلم سبينوزا أشياء كثيرة ومنها اللغة اللاتينية ،لغة الثقافة والعلم في ذلك الوقت ،وقليل من اليونانية ،هو ما أتاح له إن يطلع على كتابات الفلاسفة الجدد الناقمين على أساليب العصر الوسيط ومناهجه وموضوعاته في التفكير ،من أمثال(فرنسيس بيكون)و(وديكارت)و (توماس هوبز) ،فضلا عن مفكري عصر النهضة الايطالية ولكن بالنسبة لديكارت وهوبز كان التاثير حاسما اذ كان اتباع هؤلاء ناشطين بشكل خاص في البلاد الواطئة، لقد فتحت اللاتينية امام سبينوزا أبواب العلم الحديث والتراث العلمي للغرب [٩]. والكتاب الوحيد الذي خرج وهو يحمل اسم سبينوزا كان بعنوان (مبادئ فلسفة ديكارت ١٦٦٣) وهو الكتاب الذي جعله معروفا في الوسط الثقافي ،اذ قبلها لم يكن معروفا الا من قبل مجموعة قليليه من الأصدقاء ،وكانت الفلسفة الديكارتية منتشرة بشكل واسع في هولندا – لان ديكارت كتب اغلب مؤلفاته بين ظهرانيهم – وكان خصوم الفلسفة الديكارتية ومناصريها يخوضون معارك حامية فيما بينهم ،وفي النهاية كان تبني الفلسفة الديكارتية والترويج لها من التهم التي كادت ان تقود سبينوزا الى السجن .

ذلك انه لم يتوقف في تطبيق المنهج الديكارتي عند حدود معينه ،مثلما فعل ديكارت نفسه، الذي لم يتجرأ على تطبيق منهجه على التعليم الديني . في حين إن سبينوزا سار بالمنهج الى نهايته المنطقية فأقتحم حرمة الدين اليهودي – المسيحي مطبقا مبادئ هذا المنهج العقلاني على تاريخهما وتعاليمهما. وهو ما نجده في كتابه (رسالة في اللاهوت والسياسية – Tractatus Theological- Politicus) وهو كتاب تأسيسي بكل ما للكلمة من معنى ،تأسيسي لأنه دشن لدراسة الأديان دراسة تاريخية ،ولأول مرة يظهر في الغرب كتاب ينزع القدسية عن العهدين القديم

والجديد ،فاستحق لذلك لعنة اليهود والمسيحيين على السواء .وقد وصف بأنه الكتاب الأشد كفرا في التاريخ.

فالمؤلف يستهزئ فيه بالرسل والحواريين ،وفي رأيه انه لم تحصل اية معجزات . وهو امر ندد به بقوة القس الهولندي (فيت) الذي ركز حملته على أتباع الفلسفة الديكارتية وبالأخص سبينوزا . بالرغم من إن الكتاب صدر دون إن يحمل اسم سبينوزا ،لكن الجميع عرف انه هو صاحبه .

ولم تقدر أوربا أهمية مادشنه سبينوزا الا بعد مرور قرنين من الزمان حيث أقيم له تمثال في هولندا قرب البيت الذي كان يسكنه في سنواته الأخيرة .

ضغط الحدث السياسي الآني :

صحيح ان الفلاسفة غالبا مانجدهم ينأون بأنفسهم عن التورط الفكري المباشر بالأحداث السياسية التي يعاصرونها ،لكنهم يتناولونها بطريقتهم الخاصة . حين يموضعون الأحداث السياسية ضمن النسق الفكري الذي يؤطر مذهبهم ،ويتناولون السياسي من حيث المبادئ والأسس والدوافع البعيدة للاجتماع البشري عموما وقيام الدول ثانيا . وجدنا هذا عند أفلاطون وأرسطو قديما ووجدناه عند هوبز ولوك حديثا .وكذلك نجده عند سبينوزا حاضرا بقوة .

فبعد أن استقلت الأراضي المنخفضة عن اسبانيا سعت إلى تأسيس جمهورية باسم (الأقاليم المتحدة)[١٠] ونجحت فعلا في ذلك ،اذ أسست جمهورية مزدهرة اقتصاديا، فكانت موانئها تعد الأنشط في أوربا في ذلك الوقت . وكان هناك سياسي بارع يقف خلف هذا النجاح هو رئيس وزرائها "جان دي فيت ١٦٢٥-١٦٧٢"[١١] الذي كان يمثل قيم العقلانية والتحرر ،واحترام حرية الضمير واستقلالية الدولة .وكان هذا السياسي المستنير من المعجبين بكتابات سبينوزا ،وصديقه بذات الوقت ،بل كان المدافع والحامي له في كثير من المواقف ،فضلا عن المعونة المالية السنوية التي كان يصرفها له ..لقد كان دي فيت هو المحور والمحرك للسياسة الهولندية في الربع الأول من النصف الثاني للقرن السابع عشر .

هذا الصديق والسياسي المتنور تمت تصفيته هو وأخوه بطريقة بشعة ومثل بجثثهم من قبل حزب "الأورانج " المحافظ .وهو الحادث الذي كاد أن يفقد سبينوزا صوابه ،بل انه فكر ان يواجه هؤلاء المتمردين القساة بنفسه ،ولكن أصدقائه منعوه من ذلك خشية ان يقتل هو الأخر.

لقد اثر به هذا الحادث كثيرا ،اذ انه كان يعد نفسه مواطنا هولنديا فحسب ،وماكان هذا الأمر ليتحقق لولا شيوع أفكار التسامح والمواطنة والتحرر التي ينادي بها الحزب الجمهوري حزب صديقه "فيت " ان سبينوزا كان يشعر بهولنديته عن طريق حق المواطنة فحسب ،فهو لم يعد ينتمي الى طائفته اليهودية التي طردته من مجتمعها ،فكان مدافعا قويا عن فكرة الدولة والقانون والمؤسسات والحقوق . وهي مبادئ اهتزت بعنف بعدان قام حزب الأورانج بفعلتهم الفظيعة .[١٢]

اما (رسالة في اللاهوت والسياسية – Tractatus Theological Politicus) فقد بدأ بتأليفها منذ عام ١٦٦٥ ولم تنشر الا سنة ١٦٧٠وكان هدفه من تأليفها هوان يبين للجميع ان بناء المجتمع الحر والمتسامح ، لايتم إلا عن طريق هز أركان النظام القائم ،بل وتدميره من كل الجوانب سياسيا ولاهوتيا _ ومن هنا جاء عنوان الكتاب – فاللاهوت الكنسي التقليدي هو الذي يسوغ للسلطات ان ترتكب شتى المظالم .ولا بد من تفكيكه .

ان رسالته ليست فقط في نقد اللاهوت التقليدي الذي جرده مرة من محيطة الاجتماعي والعائلي بإصداره مرسوما دينيا بطرده من الجماعة اليهودية ، بل ايضا هو ايضا دراسة للصلة بين الدين والدولة ،او حسب تعبيره بين اللاهوت والسياسية ،لان اللاهوت بنظره ليس نظرية في الاله فحسب ،بل ينشأ عنه نظام سياسي كذلك . انها اذن تتحدث عن الصلة بين السلطات اللاهوتية والسلطات السياسية ،بمعنى انها دراسة للصلة بين اللاهوت القائم الان وبالفعل وبين النظم السياسية القائمة فعلا . فهي ليست دراسة فلسفية تجريدية فحسب ،بل انها

دراسة واقعية للأوضاع التي عاشها سبينوزا سواء في هولندا او في عموم اوربا والتي شهدت تداخل السلطتين بشكل واسع ،مثلما كانت بداية فصلهما أيضا .

إما كتابه الأخر (الرسالة السياسية - Tractatus Politicus) وهي الرسالة التي توفي قبل ان يتمها ،ونشرت بعد موته ،فهي أكثر تعبيرا عن ضغط الحدث السياسي الآني . فقد كتبها بضغط من الإحداث المؤلمة التي عصفت بهولندا، لكي يدافع بها عن أصدقائه الليبراليين التقدميين الذين ضعف موقفهم كثيرا بعد انقلاب المحافظين الأورانج واصبحو محشورين في الزاوية.

لأننا لانجد مبررا أخر أكثر إغراءا من هذا ،خصوصا اذا عرفنا ان لاجديد في هذه الرسالة الأخيرة عما كان قد قاله سابقا في الرسالة اللاهوتية ،وانأ اقصد هنا الأفكار السياسية تحديدا ،اذ لم يتخلى سبينوزا عن أي من مقولاته المذكورة في كتابه الأول ،فالأفكار والأطروحات متشابه .اذا ماالدافع ياترى إلى كتابتها .؟ ان لم يكن ضغط الحدث السياسي الآني الذي يتطلب خطابا أكثر وضوحا ولا يختلط بغيره من الموضوعات ، اذ ان الرسالة اللاهوتية السياسية كانت في معظمها تعالج موضوعا لاهوتيا ،ولم تتطرق للشأن السياسي الى في الفصول الأخيرة .

لان سبينوزا كان يعتقد إن الأولوية هي لتفكيك الخطاب الديني ،ومن ثم ننتقل الى تفكيك النظام السياسي الذي يرتكز عليه .

ان ماكان يحير سبينوزا ويقلقه ،هو إن ينجح الأصوليون المتحجرون في ان يجمعوا الناس حولهم بالملايين . فلماذا تبدوا الشعوب لاعقلانية إلى هذه الدرجة .؟ لماذا يدافعون عن عبوديتهم كما لوكانوا يدافعون عن حريتهم .يتساءل جيل ديلوز [١٣].

٢- الخلفية الفكرية :

لقد تشكلت أراء سبينوزا السياسية ،من منابع متعددة ،قديمة وحديثة على السواء ، ومن ثم يمكن القول انه صاغ نظريته الخاصة ،بناء على مفاهيم وأفكار كان للآخرين دور ملحوظ في تشكيلها.

فحين بدأ بتعلم اللغة الاتينية بمعية الطبيب والمفكر الهولندي الدكتور "فان دن اندن" الذي اعدم سنة ١٦٧٤ عندما دخلت الجيوش الفرنسية الأراضي الهولندية بتهمة التأمر على الملك لويس الرابع عشر.لقد كان "اندن "بالإضافة إلى كونه من السياسيين المتحررين والمتعاطفين مع الحركات الثورية الجديدة التي شهدتها هولندا في ذلك الوقت بعد إن نالت استقلالها من اسبانيا .لتأسيس جمهورية في الأراضي المنخفضة ،فأنه أيضا مفكر حر التفكير وقارئ جيد للكتابات الفلسفية والعلمية الجديدة ،وكان ذا نزعه صوفية تميل الى وحدة الوجود بتأثير من (جوردانو برونو ١٥٤٨-١٦٠٠) الذي كان يمثل روح التمرد والنشوة بالكون الجديد الواسع الممتد الى مالا نهاية ،من خلال نظريته في العوالم المتعددة.

بنزعته هذه ترك"فان دن " أثرا قويا على سبينوزا ،او هو على حد قول احد المعلقين : انه العبقري الذي يقف وراء سبينوزا ذلك إن كتابات "فان دن اندن "كانت تنطوي على نظرية سياسية هي تقريبا ذاتها التي قدمها سبينوزا . [١٤]

وسواء كان هذا القول صادقا أم مبالغا فيه فأن المؤكد إن تفكير سبينوزا السياسي قد نضج خلال صحبته لهذا الطبيب الذي علمه الفلسفة .ولحلقة الديكارتيين ذات التوجه النقدي الجذري في أمستردام . [١٥]

التأثير الثاني المؤكد والحاسم على تفكير سبينوزا السياسي هو "توماس هوبز١٥٨٨-١٦٧٩ " وتحديدا فلسفته السياسية . لقد قرأ سبينوزا كتاب هوبز "في المواطن – De Cive "الذي أصدره هوبز سنة ١٦٤٢، وقد وجدت نسخة من هذا الكتاب بين الأشياء القليلة التي تركها سبينوزا بعد موته . وقرأ أيضا كتاب هوبز الشهير "التنين – Leviathan الذي ظهر في طبعته اللاتينية سنة ١٦٦٨في هولندا وهو الوقت ذاته الذي أنهى فيه سبينوزا كتابة "الرسالة اللاهوتية السياسية . وسنبين فيما بعد تأثير هوبز القوي بل نستطيع القول النسخ الحرفي لكثير من مقولات هوبز في (حالة الطبيعة)،والدوافع للعقد الاجتماعي ،وطبيعة الانفعالات .

نجد صداها واضحا في فكر سبينوزا في اكثر من جانب وبالأخص في الجانب السياسي منه .ان المذهب الميكانيكي الذي اشاد به هوبز كثيرا ،دون خوف او تردد ،نجده مهيمنا بشكل كامل على مذهب سبينوزا ،فكلاهما استبعد تفرقة ديكارت وثنائيته الحادة بين الذهن والمادة ،ومنح العقل الحرية والخلود،وهو امر لانجده عند سبينوزا ولاعند هوبز اذ أصبح العقل عندهما خاضعا لنظام كوني عام .

وقد اخذ سبينوزا بتحليلات هوبز السيكولوجية ،مثلما اخذ عنه تحليله المجرد وغير المتسامح (للطبيعة البشرية). لقد كانت نقطة انطلاق كلا الفيلسوفين او البداية

المشتركة وهي الحالة الطبيعة ،تمثل مدخلا يقودنا بشكل تلقائي الى العقد الاجتماعي .و مثلما كانت الطبيعة الإنسانية هي المقترب الصحيح لتدشين علم سياسة ناضج. فإن سبينوزا أحس بأن دراسة الدولة ينبغي أن تبدأ ببحث الخلق الأساسي للإنسان. وقد نفهم هذا بشكل أفضل إذا تيسر لنا أن نتصور الإنسان قبل أن يعدل التنظيم الاجتماعي من سلوكه، بالقوة والأخلاقيات وبالقانون.

لكن كلا الفيلسوفين انتهيا الى نتائج عكسية تقريبا ،حيث وكما هو معروف انتهى هوبز الى سلطة مطلقة – بصبغة ملكية – انتهى سبينوزا بضغط من الوطنية الهولندية التي كان قريبا من ابرز قادتها ، الى ان يفضل نظاما جمهوريا ديمقراطيا وشيء أخر اود ان الفت النظر اليه هو ان هوبز هو من نبه سبينوزا إلى (مكيافيلي ١٤٦٩-١٥٢٧) اذ كان يشير اليه بانه الفلورنسي البالغ الذكاء ،وأعظم عبقري بعيد النظر.[١٦]

لقد كان تأثير هوبز في المناخ الفكري السياسي في هولندا ملموسا وذلك بفضل مجموعة من المدافعين عن أرائه وبالأخص من خلال "لامبرت فان فلثوزن " وهو طبيب ليبرالي التفكير كان يقف بقوة ضد سطوة رجال الدين ،وكان يدافع عن أفكار هوبز بحماس كبير وبالأخص فكرة هوبز الأساسية (الحفاظ على الذات) باعتبارها هي التي تقود المجتمع من حالته الطبيعة العنيفة إلى مجتمع التعاقد والسلام . لكن ما إربك سبينوزا هو حكم لامبرت على رسالته اللاهوتية السياسية باعتبارها عملا ملحدا وينطوي على مخادعة .

وبعيدا عن "لامبرت "كانت هناك قناة أخرى تعرف من خلالها سبينوزا على أفكار هوبز وذلك عن طريق كتابات الأخوين (دي لا كورت) والتي قام بنشر معظمها "بيتر دي لاكورت " بعد موت أخيه (جون دي لاكورت) سنة ١٦٦٠ ،لقد كان الأخوين من الجمهوريين المتحمسين وكانت لهم صلات جيدة بالسياسي البارز(جان دي فيت) والذي يعتقد انه كتب فصلين في الطبعة الثانية لكتابهما (مصالح هولندا). ان ما هو مهم هنا هو إن الأخوين (دي لاكورت) تبنوا الأطروحة الرئيسة لفلسفة هوبز وهي التي أشرت إليها قبل قليل أي حفظ الذات او البقاء.[١٧]

كان الأخوين(لاكورت) يؤكدون في كتاباتهم بأن هدف الدولة هو توفير الترابط القوي بين مصالح الحكام والمحكومين ،وهذا الهدف يكون ممكنا فقط اذا تبنينا وأنشئنا سلسة من الإجراءات المؤسساتية والدستورية , عن طريق الانتخاب ،بالتزامن مع إزالة الإرث القديم المتمثل في توارث الألقاب والمناصب .

وهذا ماسيحققه النظام الجمهوري الذي سيكون رقيبا ضد كل أنواع التشريعات المنحازة التي يقصد من ورائها خدمة فئة محددة لطبقة معينة أو حتى شخص بعينه ،إي باختصار تلك التشريعات التي تفوح منها رائحة الأنانية الضيقة .

وبكل تأكيد سيكون افتراضنا صحيحا أن سبينوزا قرأ هذه الكتابات بعناية ، لأننا نجد الكثير من أرائه السياسية وتوصياته الدستورية في

(الرسالة اللاهوتية السياسية) وأيضا في (الرسالة السياسية) تعكس هذه الآراء بصورة او أخرى .وقد وجدت في مكتبة سبينوزا بعد وفاته كتابات للأخوين لاكورت ،مثل
(الخطابات السياسية)و(ملاحظات حول الدولة).

وسبق ون ذكرت تاثير هوبز وانه هو من نبه سبينوزا إلى كتابات مكيافيللي وبالأخص فكرته عن توازن المصالح بين الإطراف والأحزاب المتنافسة فهي من أفكار مكيافيللي،واستبصارا ته العميقة. وكتابات سبينوزا في هذا الجزء من المساحة الفكرية ،الموروث من مكيافيللي وهوبز .[١٨]

وقد تعززت قناعة الباحثين بتأثر سبينوزا بمفكري عصر النهضة الايطالية بعد اكتشاف مخطوطة من تاليفه بعنوان (الرسالة الموجزة في الله وفي الإنسان وسعادته) والتي نشرت سنة ١٨٦٢.[١٩]

وسبينوزا يكاد ان ينسخ ميكيافليي في نقده للتنظير الطوباوي في الفلسفة السياسية الذي يرفع من شأ ن الفلاسفة ويضعهم دائما فوق رجالات السياسة ،وكأننا في خضم معركة فكرية ،لقد تصور كثيرون إمارات وجمهوريات لاوجود لها في الحقيقة ،ان الفرق شاسع بين حياتنا الواقعية والمتخيلة ،ان من يهمل ماهو كائن لأجل ماينبغي ان يكون يجلب لنفسه الخراب العاجل من يريد ان يكون خيرا في سلوكه مع الجميع لابد ان يعض اصبع الندم .[٢٠]

لان مكيافيللي وكما هو معروف يبدأ من واقعية سايكلوجية بشرية محضة .الا وهي ان الأنانية والاستحواذ هما محركان أساسيان للسلوك مهما كان نوعه اجتماعيا ام سياسيا ،لكنه في السياسية اكثر وضوحا ،وتتخلل هذه الواقعية الميكيافلية كتابات سبينوزا السياسية وبشكل خاص في(رسالته السياسية) وأفكاره عن السلطات الدستورية .فهو مثل مكيافيللي يرى ان اصلاح وتحسين رجال الحكم يمكن ان ينال عن طريق القيام اولا بتشخيص المشاكل بشكل صحيح ومناسب بالتوازي مع الفهم الصحيح للطبيعة البشرية .

٣-الملامح الأساسية لفلسفة سبينوزا السياسية .

هناك ثلاثة مبادئ اساسية ومهمة كتبها سبينوزا في كتابه الأخلاق ،وكررها أيضا في الرسالتين ،يؤكد فيها وبإصرار يبدو احيانا دوكمائي ،بأن الإنسان جزء من الطبيعة لايختلف عن بقية أشيائها وبالتالي خاضع كلية الى قوانينها وقواعدها ،وتعليل ذلك ذلك هو :

١- ليس الله العلة الفاعلة لوجود الأشياء فحسب ،بل هو العلة الفاعلة لماهيتها ايضا .[٢١]

ان الكائن الأزلي واللانهائي الذي نسميه الله او الطبيعة يفعل بنفس الضرورة التي بها يوجد ،ذلك لان الضرورة الطبيعية التي بها يوجد انما هي عين الضرورة التي بها يفعل . والسبب او العلة التي تفسر لماذا يفعل الله او الطبيعة ،ولماذا يوجد ، هي

علة واحدة ،هي هي على الدوام . ولما كان الله لايوجد من اجل غاية ،فهو لايفعل ايضا من اجل غاية وفعله لامبدأ له ولا غاية ايضا ،شأنه شأن وجوده .[٢٢]
٢- ليس للطبيعة اية غاية محددة مسبقا وان كل العلل الغائية لاتعدو ان تكون مجرد أوهام بشرية .. ان كل مايحدث في الطبيعة انما يحدث وفق ضرورة أزلية وبغاية الكمال .[٢٣]
٣- ان الطبيعة هي هي على الدوام وفضيلتها وقدرتها على الفعل واحدة ، و هي ذاتها في كل مكان ،اي ان قوانين الطبيعة وقواعدها التي تحدث بمقتضاها الأشياء وتنتقل من شكل الى اخر هي نفسها دائما وفي كل مكان .[٢٤]
من مجموع هذه المبادئ يستلزم ان يكون سلوك الانسان شبيه بسلوك كل الأشياء الأخرى الموجودة في الطبيعة .فسلوكه محتوم بشكل كامل وفقا لثبات قوانين الله في الطبيعة .

ان هذه المنظومة من الاقكار هي جزء هام من من الخلفية الميتافيزيقية التي اثرت في صياغة نظريته السياسية . وقادته في الوقت ذاته لان يتبنى وجهة نظر راديكالية حول منبع ووضع الحقوق الأساسية للإنسان ، والواجب ،وطبيعة القوانين.لذا فهو يكررها باستمرار في كتاباته السياسية . يقول في كتاب اخر :
ان القدرة التي توجد بها الأشياء الطبيعية ،وأيضا التي تدار بها ،هي ليست غير قدرة لله الابدية ذاتها ... وان الإنسان سواء كان متعلما او جاهلا فانه جزء من الطبيعة . وان كل فعل بشري محدد بالطبيعة او يجب ان يحال الى قوة الطبيعة ، أي انه يحدد بطبيعة هذا الانسان او ذاك ،لان الانسان سواء كان منقادا بالعقل او بالرغبة الخالصة فانه يفعل مايحافظ على الانسجام مع قواعد وقوانين الطبيعة .[٢٥]
ان هذه المبادى بالذات هي ماجعلته مختلفا نوعا ما عن فلاسفة القرن السابع عشر ونظريتاهم السياسية اذا استثنينا هوبز من هذا التعميم .

ان طبيعة سبينوزا لاتعطي اي معنى متعالي لله . فالذين يعتقدون بتعالي الله يتصورون ان هناك قوتين منفصلتين عن بعضهما البعض بشكل تام ، قوة الله وقوة الطبيعة ... فهم يتخيلون الله او قدرة الله وكأنها تشبه بشكل ما حكم العاهل او الملك . وقوة الطبيعة كأنها نوع من القوة والطاقه . وفقا لتصور الله عند سبينوزا فأنه غير متعالي بل هو غير مشرع بل هو الطبيعة ذاتها وهو مايستلزم ان تكون كل الافعال صادرة وفقا لارادة الله وهي حجة تبدو معقولة ظاهريا على الاقل .لأنها ترد على الذين يدافعون عن الحق الإلهي للملوك من جهة ومن جهة اخرى ترد على دعاة الحقوق الطبيعية وفقا لنظرية (التخويل) التي كانت متبناة من قبل فلاسفة القرن السابع عشر . اي تخويل الرعية للحاكم مع بدء تشكل الدولة .
واكثر من هذا فوجهة النظر هذه تتجاوز وجهة النظر الثنائية التي كانت ترى ان هناك نظامين للأشياء متواجهين تقريبا واحد للعقل واخر للمادة . انهم يتصورون الانسان كما لو كان مملكة داخل مملكة .[٢٦]

هكذا يردد سبينوزا وهو راي اضعف الافتراضات اللاهوتية التي تشكل القاعدة الاساسية لنظرية الحق الطبيعي التي يؤمن بها ويروجها اللاهوت التقليدي .وحتى الذين يرغبون بفصل القانون الطبيعي عن اللاهوت او الذين يصرون على تاكيد دور الارادة الالهية ، يفترضون بأنه يجب ان تكون هناك طريقة توجد بها الاشياء بحث يكون بمقدورها ان تنفصل عن النظام الطبيعي للاشياء . وطبقا لوجهة النظر هذه فأن الفعل الانساني يكون مضادا للطبيعة حين يقومون بافعال مضادة للقانون الصحيح للعقل .

سبينوزا يرفض وجه النظر هذه ،فطبقا لاي الشيء يكون الانتهاك الجاهل لقانون الطبيعة عوضا عن مجاراتها هو الذي يحكم بني البشر .انهم يعتقدون ان الإنسان هو مملكة داخل مملكة .

ان سبينوزا يهاجم هنا الافتراض بان الإنسان انما هو خاضع ومحكوم فقط وفق نظامه العقلي الخاص ،وهي القوانين المعيارية . أكثر مما هو محكوم بالقوانين التي تسود في باقي الطبيعة .انه بدقة الموقف الذي عارضة سبينوزا بحدة استنادا الى قضيته المبرهن عليها، بأن قوانين وقواعد الطبيعة هي هي دائما وفي اي مكان هي هي ذاتها.

سواء كان الإنسان يقاد عن طريق العقل او عن طريق الرغبة . فأنه لايفعل شيئا لا يتفق مع قوانين وإحكام الطبيعة وباختصار فان تبني وجهة النظر القائلة بأن الطبيعة واحداة ،وان الإنسان محكوم بذات القوانين مثلما هو كل شيء اخر في الطبيعة ،هي الاكثر قبولا بنظر سبينوزا من ترهات اللاهوتيين التي هي مأوى للجهل .[٢٧]

ان سبينوزا يرفض كل التراث الذي كان يدعي تفسير القوانين الطبيعية . لانه ا يعرض وجهة نظر هي جزء من النزعة العلمية ذات الصبغة الآلية التي بدأت مع تفسيرات غاليلوالثورية للحركة أن تخليه عن المفاهيم المعيارية للطبيعة ،ورفضه للاهوت هو مؤشر واضح على القطيعة مع التراث التقليدي . وحتى نثمن عمق وتميز وجهة نظر سبينوزا الطبيعية ,فانه من المفيد ان نقارن وجهة نظره حول الحق الطبيعي والالتزام مع توماس هوبز .

الحق الطبيعي بين هوبز وسبينوزا .

لا احد يستطيع ان ينكر التأثير الحاسم لفلسفة هوبز السياسية على سبينوزا ،لان المنطلقات واحدة ،وهي تاسيس للسياسية انطلاقا من نظرة شديدة الواقعية للطبيعة البشرية كما هي في الواقع ،وليس كما تصورها الاديان والفلسفة القروسطية .ان الانسان جزء من المملكة الحيوانية اولا وهذه جزء من مملكة الاشياء في الطبيعة ،الجميع خاضع لقوانين طبيعية صارمة .فلم يعد هناك فصل بين البنية الفيزيائية والبنية البايلوجية وأيضا بين البنية النفسية ،باعتبار انها خاضعة لقوانين يمكن اكتشافها ودراستها او على الاقل محاولة اكتشافها ان قوانين الطبيعة وقواعدها التي

تحدث بمقتضاها الأشياء وتنتقل من شكل الى اخر هي نفسها دائما وفي كل مكان .وتبعا لذلك ينبغي ان يكون المنهج السليم لمعرفة طبيعة الأشياء مهما كانت هذه الاشياء نفس المنهج ،اعني منهجا ينطلق دائما من قوانين الطبيعة وقوانينها الكلية ،وهكذا فأن انفعالات الكره والغضب والحسد وغيرها ،تسير وفقا لنفس الضرورة الطبيعية التي تسير عليها الأشياء الجزئية الأخرى ،وبناء على ذلك فأن لهذه الانفعالات عللا محددة تسمح بمعرفتها بوضوح ولها خصائص معينة تجدر معرفتها شأنها شأن أي موضوع اخر .[٢٨]

انه هنا يعلن القطيعة التامة مع مبدأ التعالي الذي كان يستثني الانسان من التعليل الواقعي لشؤونه دون بقية الكائنات ،ويجعله كانه مملكة داخل مملكة .

لذا فان سبينوزا يكتب بجرأة عن مايعنيه بالحق الطبيعي ،انطلاقا من هذه النظرة الطبيعية الصارمة،وهو امر صدم القراء الاوائل لكتابه ،وهو ماجعله ينال لقب الملحد القادم من الجحيم . يقول سبينوزا اعني بالحق الطبيعي وبالتنظيم الطبيعي مجرد القواعد التي تتميز بها طبيعة كل فرد ،وهي القواعد التي ندرك بها ان كل موجود يتحدد وجوده وسلوكه حتميا على نحو معين .فمثلا يتحتم على الاسماك ،بحكم طبيعتها ،ان تعوم وتأن يأكل الكبير منها الصغير ،وبالتالي تستمتع الاسماك بالماء ،ويأكل الكبير منها الصغير ،طبقا لقانون طبيعي مطلق ،والواقع اننا اذا نظرنا الى الطبيعة في ذاتها ،نجد أنها تتمتع بحق مطلق على كل من يدخل تحت سيطرتها أي ان حق الطبيعة يمتد بقدر امتداد قدرتها ،لان قدرة الطبيعة هي قدرة الله نفسه الذي له حق مطلق على كل شيء .[٢٩]

ان الحق الطبيعي اذن هو حق السلوك وفقا لقوانين الطبيعة التي لامحيد عنها أي ليس هناك اختيار بين مجموعة معطاة من الافعال لنقرر بإرادة حرة مانريد وما لانريد ، ان الاشياء ونحن من بينها مدفوعين لهذا السلوك دفعا .

والحقيقة ان سبينوزا يبدو لي متأثرا بقوة بالفزياء الجديدة التي دشنها غاليلو وعلى الاخص قانون القصور الذاتي الذي صاغ غاليلو صورته النهائية والذي يقول :ان كل جسم ،لو ترك وشأنه سيستمر في الحركة في خط مستقيم بسرعة منتظمة،الى ان يوقفه شيء ما او يغير اتجاهه.[٣٠]

وسبينوزا يقول :ان القانون الاعظم للطبيعة هو ان كل شيء يحاول بقدر استطاعته ان يبقى على وضعه ،وبالنظر الى نفسه ،دون اعتبار لاي شيء اخر فينبني على ذلك ان يكون لكل موجود حق مطلق في البقاء على وضعه أي ان يوجد وان يسلك كما يتحتم عليه طبيعيا ان يفعل .

وسرعان مايستخلص سبينوزا النتيجة المنطقية اللازمة من هذا القانون ،مثلما استخلصها قبله هوبز الا وهي انه ليس هناك من فرق بين الناس والموجودات الطبيعية الأخرى ،اننا ليس مملكة داخل مملكة ،والواقع ان كل من يفعل شيئا طبقا لقوانين الطبيعة انما يمارس حقا مطلقا

،لانه يسلك طبقا لما تمليه عليه طبيعته ولايمكنه ان يفعل سوى ذلك .فبقدر ماننظر الى الناس على أنهم يعيشون تحت حكم الطبيعة وحدها ،نجد ان لهم جميعا وضعا واحدا .[٣١]

ان المبدأ الاساسي الكامن وراء سلوك الانسان هو مبدأ(الشهوة -Appetites) فهو الدافع الحيوي وهو ارادة الحياة ،لان كل موجود انما يسعى من اجل الحفاظ على ذاته قدر مايستطيع .وهو في هذا لايرتكب اثما انما هو ببساطة فعل في غاية الانسجام مع الطبيعة وقوانينها .فالشهوة اذا ليست غير ماهية الانسان بالذات ،التي ينتج عنها بالضرورة مايساعد على حفضها وما يتحتم على الانسان القيام به ، اننا لانسعى الى شيء ولا نريده ولا نشتهية ولا نرغب فيه لكوننا نعتقده خيرا ،بل نحن على العكس من ذلك نعتبره خيرا لكوننا نسعى اليه ونريده ونشتهيه ونرغب فيه .[٣٢]

وهذا المبدأ يفضي مباشرة الى استنتاج منطقي هو ان الانسان اناني بطبعه ،وهذه هي نقطة الالتقاء بينه وبين هوبز ،فهذه التصور الاولي للطبيعة البشرية عدت بنظرهم بديهية واضحة ،وهي التي تقود الى بيقية الاستنتاجات بشكل منطقي .اي ان يتصرف الانسان وفقا لما يرى انه يحفظ بقائه .وهو انما يمارس حقا طبيعيا مطلقا في ان يفعل كل ماتدفعه الشهوة نحوه ،أي انه يعيش طبقا لقوانين الشهوة ،هذا الحق الذي يتحدد حسب الرغبة والقدرة لكل انسان وليس حسب العقل السليم .فليس الجميع مؤهلا بشكل طبيعي للتصرف وفقا للعقل السليم وقواعده ، بل على العكس من ذلك يولد الجميع في حالة من الجهل المطبق ،وقبل ان يتعلموا اسلوب الحياة الصحيح ويكتسبوا العادات الفاضلة ،يكون الجزء الاكبر من حياتهم قد انقضى ،حتى وان كانوا على قدر كبير من التربية .الا انهم يكونوا في غضون ذلك مضطرين للعيش والحفاظ على وجودهم بقدر المستطاع ،بدافع الرغبة الشهوانية ،لان الطبيعة لم تعطهم سواه ،ومن ثم فهو لايستطيعون العيش وفقا لقوانين العقل ،كما لايستطيع القط ان يحيا وفقا طبقا لقوانين طبيعة الأسد .[٣٣]

والتيجة المترتبة على ذلك تفرض نفسها بشكل منطقي ،أي ان كل فرد خاضع لمملكة الطبيعة يفعل مايراه نافعا له ،سواء أكان في ذلك مدفوعا بالعقل السليم ،ام بقوة انفعالاته ،فانه يحق له ان يشتهية طبقا لحق طبيعي مطلق وان يستولي عليه بأي وسيلة ،سواء بالقوة ،ام بالمخادعة ،ام بالصلوات ،ام باي وسيلة اخرى ايسر من غيرها ،وبالتالي يحق له ان يعد كل من يحاول ان يعيق هذه الرغبة او الشهوة عدوا له ان الطبيعة هنا بوصفها قانونا موضوعيا لاتحابي احدا فهي تسري على الجميع،ولا تعرف الخير والشر لان هذه احكام قيمية بشرية نسبية لاغير ويمثل هذا الرأي من سبينوزا نقطة التقاطع الرئيسة مع هوبز مع نقاط اخرى طبعا وانا قلت في الصفحات السابقة ان سبينوزا يكاد ينسخ هوبز .

فهناك حالة تسبق قيام الدولة وهي الخطوة التي تسبق عرض هوبز لنظريته السياسية في تكوين الدولة .هذه الحالة يسميها هوبز "حالة الطبيعة – state of

nature " وهو هنا يعني بها الوجود البشري الخام اوالطبيعي الذي خلي بينه وبين غرائزه الطبيعية ،بدول اي تدخل من اي جهة كانت .انها وصف للحالة التي لابد ان يسلك الناس على اساسها ويتصرفون تبعا لها ، مالم تكون هناك سلطة تلزمهم بسلوك محدد ومقنن فأن كانت هذ هي الحالة الطبيعية فياترى ماهو المحرك او الدافع الاساسي لسلوك وافعال البشر ؟ ويأتي جواب هوبز حاسما وقاطعا " ان المحافظة على الذات وتعزيز بقاء المرء ووجوده هي المبدأ الاول الذي نشتق منه كل المبادىء الاخرى فالغاية الاساسية للانسان هي المحافظة على ذاته هذا هو المبدأ المؤسس والمسلمة الكبرى التي يبدأ منها هوبز . ان الميل الطبيعي للكائن الحي يحتم عليه ان يحافظ على ذاته ،واتساقا مع هذا المبدأ نجد الانسان في حالة الطبيعة يرغب في المحافظة على بقائة ويسعى الى كل ما يدعم وجوده . وهذا السعي هو حق طبيعي ،وكلمة حق هنا تعني الحرية التي يمتلكها كل انسان في استخدام قدراته الطبيعية طبقا للعقل السليم للمحافظة على حياته الخاصة ،وبالتالي حريته في ان يفعل اي شيء في تقديره وتصوره انه انسب الوسائل لهذه المحافظة .ومن ثم فأن الاساس الذي يرتكز عليه الحق الطبيعي هو : لكل انسان الحق في ان يبذل جهده لحماية حياته وصيانة اعضائة بكل ما اوتي من قوة .[٣٤]

المبدأ المؤسس اذن هو "المحافظة على الذات " واي رفض لهذا المبدأ يوقعنا في تناقض صريح ، انه مبدأ يمليه العقل الطبيعي ،انه الشرط الذي لابد منه لاشباع اي رغبة ، ومن هذا المبدأ يستنبط هوبز نتجيته المنطقية وهي "الحق الطبيعي " اعني ان لكل انسان الحق في استخدام قوته للمحافظة على حياته ،له الحق في ان يعمل أي شيء ،وكل شيء لكي يدعم هذا البقاء وكل مايساعده على البقاء والمحافظة على ذاته فهو حق له لايحده شيء او يقيده قانون غير قانون الطبيعة ذاتها،ان في حالة الطبيعة لكل انسان الحق في عمل اي شيء يساعده في الغاية النهائية الا وهي حفظ البقاء بل ان هوبز يستنبط من هذا المبدا مجمل البناء السايكلوجي والاخلاقي للانسان . فما الخير والشر ،واللذة والالم ، والسعادة والحزن ...الخ انما جذرها يكمن في هذا المبدأ الاول .فلا يمكن ان يكون لديه دافع ايجابي ومؤثر يعمل ضد هذه المحافظة على بقائة .انه القاعدة الاساسية التي تكمن وراء كل سلوك لان الكائن الحي مدفوع بالغريزة للمحافظة على حياته وادامة بقائها ، ان المحافظة على الذات هي المبدأ "الفزيولوجي "الكامن وراء كل سلوك ،فما يؤدي الى هذه الغاية فهو خير ومايتعارض معها فهو شر ومن حالة الطبيعة ،ومن هذا المبدأ ،مالذي نتوقعه من

سلوك بين البشر ؟ ان استنتاج هوبز المنطقي ومثلما هو مشهور عنه هو : "حرب الجميع ضد الجميع "ان هوبز هنا يصف الطريقة التي لابد ان يسلكوها بناءا على هذا المبدأ ، وهو كما نتوقع لابد ان يكون صراعا يقوم به كل انسان نحو كل انسان اخر ،صراع من اجل المحافظة على نفسه والسيطرة على الاخرين .انها اجابة هوبز عن سؤاله الافتراضي الذي طرحه في "التنين : ماهي ياترى طريقة الحياة التي لابد ان توجد اذا لم تكن هناك قوة عامة قادرة على بث الخوف والخشية في قلوب الناس "وكانت اجابته التي لم يتردد بها كثيرا "اننا سوف نصل الى حالة الحرب الشاملة وسوف يتحول كل انسان الى ذئب نحو اخية الانسان .[٣٥]

وهو مالم يستنتجه سبينوزا من حالة الطبيعة هذه او الادق مالم يصرح به ،بالرغم من انها نتيجة منطقية لازمة من المقدمات بشكل واضح بالنسبة لهوبز ان الطبيعة الاولى للانسان هي طبيعة حيوانية تماما "يغلب عليها الغرائز الظلم والجور والعنف وتسودها الدوافع الطبيعية التي لم تروض بعد والإعمال والمشاعر اللانسانية .ولاشك ان المجتمع والدولة يمارسان نوعا من الحد ،لكنه حد للغرائز الفجة والانفعالات الوحشية وحدها .الصراع اذن هو الاستنتاج المنطقي السليم من مبدأ المحافظة على الذات ،لكن سبينوزا يعارض حالة الطبيعة هذه بحالة المجتمع ،لان افضل المجتمعات هو الاقرب الى الطبيعة،وهو الذي يزيد من قوة الفرد باجتماعه مع غيره ،لان المجتمعات تسعى في المحصلة الاخيرة الى الحرية ،ويتم ذلك بالطرق الطبيعية التي تشمل العقل والشهوة على السواء . لكن هذا يتم بعد ان يتم استيلاد الدولة من هذا الضخب الانفعالي الطبيعي ،او حالة الطبيعة وهنا اود ان اوضح ان كلا المفهومين واقصد بهما (حالة الطبيعة) و(العقد الاجتماعي) كانت من المفاهيم المركزية في النظريات السياسية التي انتشرت في اوربا في القرن السادس عشر والسابع عشر ،لكنهما كان اكثر نضجا ووضوحا عند كل من المفكر الفرنسي (هوغوغروتيوس١٥٨٣-١٦٤٥).[٣٦] وهوبز . وايضا نجدهما في النظريات التي جاءت بعد سبينوزا عند كل من (جون لوك١٦٣٢-١٧٠٤) و(جان جاك روسو).فحالة الطبيعة هي افتراض منطقي للحالة الاجتماعية التي كان عليها الناس قبل ان يتم اختراع التنظيم الاجتماعي باشكاله المختلفة ،و تعتبر الدولة ارقى هذه الاشكال .وحقوق الافراد في حالة الطبيعة ،تتبع من مقدار مالهم من قوة ،فحق الافراد يمتد الى حيث تمد قوتهم ،ولايحدها الا قوة الافراد الاخرين .[٣٧]

اي اننا هنا امام توازن رعب بالمصطلح الحديث .والناس لها العذر في سلوكها هذا لان الهدف الاساسي هو(حفظ الذات) , فيقودنا هذا الى الاستنتاج المنطقي المفضي الى العقد الاجتماعي .لماذا؟ لانه طالما الهدف هو حفظ الذات فانه لايمكن ان يتحقق بصورة كاملة ان لم يتفق الافراد على نوع من السلطة ،ونوع من التشريعات التي تضمن حقوق الجميع ،وتحقق مزيد من المنفعة وتقربنا اكثر الى تحقيق الهدف الاسمى وهو حفظ الذات .فيتم الاتفاق على عقد اجتماعي يتم فيه التنازل المتبادل عن بعض حقوقهم الطبيعية , ووضعها في سلطة حاكمة ،تشرع القوانين التنظيمية لما تم التنازل عنه من حقوق نستطيع ان نقول ان هذه النظرية باشكالها المختلفة شكلت مايمكن ان نسمية (نموذج – paradigm) تفسيري ،فهي شكلت بديهية من بديهيات الفلسفة السياسية في القرن السابع عشر بالذات ،فلم تكن هناك امكانية لتصور طريقة اخرى لظهور التنظيم الاجتماعي البشري في هذا المناخ الفكري المهيمين لكن من المهم ان نعرف ان هذه النظرية هي بالضد من الراي الشائع في التراث الاوربي بشكل عام . لقد اخذ الفلاسفة والمشرعون وعلماء الدين الاوربيون من اليونان وروما الرأي القائل ان جميع المعايير والقوانين الاجتماعية الشرعي تستند الى(قانون طبيعي) شامل وحيد .تضمن هذا المفهوم الرواقي اصلا بعض المبادئ الأخلاقية الأساسية مثل : (لاتؤذ احدا)،(اعط لكل حق حقه)،(اوفي العهود).كانت هذه تعد معروفة لدى البشر بالفطرة .وقد امكن الاستنتاج منها قداسة الحياة والملكية .وفي الحقيقية كانت ثمة تلميحات في اوائل المسيحية ان المرء يمكنه ان يعرف ويمارس المبادئ الاخلاقية (بالفطرة)وكان الواجب الاخلاقي نحو الغرباء موضوعا اساسيا في الاناجيل .وفتحت الرواقية- من خلال (شيشرون) والقانون الروماني المجتمع الاوربي والكنيسة اللاتينية – مفهوما متميزاعن الحق الطبيعي ،بوصفه مجموعة معيير سابقة للمجتمع المنظم الموجود ،وهي تلزم جميع البشر – ومن اجلهم – بسبب إنسانيتها فقط وهذا شائع عند جميع الناس ومعتنق في كل مكتن ،ليس بواسطة دستور ما او آخر ،ولكن بدافع من الطبيعة .[٣٨]

والنظرية برمتها – اقصد حالة الطبيعة- هي مجموعة من الافتراضات المنطقية ليس الا ،بمعنى انها مقطوعة الصلة بالواقع تماما وماجرى فيه من وقائع فعلية واحدات،هي التي شكلت وانتجت المجتمع في النهاية لقد كان المفكرون السياسيون يفترضون افتراضا منطقيا هو:ان الحالة الراهنة للمجتمعات البشرية لابد ان يكون قد سبقها حالة اخرى وهي الحالة التي اسموها حالة الطبيعة .ولابد ان تكون الشريعة

السائدة في مثل هذه الحالة لاتختلف عن مانراه يسود المجتمعات الحيوانية الاخرى التي مازالت تعيش حالة الطبيعة ، هي شريعة القوة ، ولما كانت القوة قادرة على تدمير الاخرين فانها في الوقت عينه تدمر ذاتها اذ تركت بدون ضابط .وهنا ننتقل الى الخطوة التالية وهي خطوة العقد الاجتماعي ،ان هذا التسلسل المنطقي بالنسبة للمفكريين السياسيين في ذلك الوقت يعتبر امرا مفروغا منه ،وحقيقية لاتقبل المناقشة .وهي بالتالي اخذت مكانها في فلسفة سبينوزا السياسية بشكل تلقائي وهو امر يعتبره دكتور فؤاد شاذا عن فلسفته الى حد ما لان السياق العام لتفكير سبينوزا الفلسفي كان يقتضي نوعا من الخروج على هذه النظرية السياسية الشائعة ،اذ يشعر المرء بأن ثمة نوعا من الفراغ في نظريته السياسية المتعلقة بأساس تكوين الدولة .[٣٩]

والحقيقية ان الامر يبدو كذلك أن قصرنا النظر على فلسفة سبينوزا فقط ،وتعاملنا معها باعتبارها نتاجا فلسفيا نظريا محضا لفيلسوف عرف عنه العزلة ،لكن ان نظرنا لفلسفته والسياسية منها بشكل خاص ، باعتبارها وليدة مناخ فكري سائد ومسيطر استنادا لنموذج تفسيري مهيمن ،فيكون الشاذ هو الخروج على هذه النموذج ،وليس الاحتكام اليه لقد تاثر سبينوزا بهذه النظرية بقوة واخذ بكل منطلقاتها ،لكنه اختلف في مايجب ان ينتج عن العقد الاجتماعي من سلطة ،وواجبات هذه السلطة وطبيعتها ونوعها ،عن غيره ممن اخذ بهذه المنطلقات من الفلاسفة ،هوبز مثلا فأذا كان تحقيق الامن هو الغاية القصوى الذي من اجله وجدت السلطة السياسية ، فان تحقيق هذه الغاية لايحدد على الاطلاق شكل الحكومة او السلطة في المجتمع ،وهذه هي نقطة الاختلاف بينه وبين هوبز الذي كان يميل الى ان تكون سلطة قاهرة لاتحاسب على افعالها .في حين ان سبينوزا يفضل حكومة ديمقراطية وحتى نفهم الطبيعة البشرية كما يصورها سبينوزا ،وبشكل خاص الحوافز الاصلية لسلوكهم وافعالهم ، سنكون في الموقع المناسب الذي يؤهلنا لتحديد الغايات من قيام المجتمعات السياسية . والتي تقودنا في النهاية الى توضيح وتبرير افعال السلطة السياسية . وايضا تخبرنا لماذا كان سبينوزا لايميل الى شكل محدد من السلطة ففي كتابيه "الرسالة اللاهوتية السياسية " و"الرسالة السياسية " قدم سبينوزا عددا من الحجج القوية والاصيلة في دفاعه عن الحكومة الديمقراطية بغض النظر عن شكلها .وعن حرية الفكر والتعبير ،وعن لزوم خضوع الدين لسلطة الدولة .وكلها مبنية على ميتافيزقاها الطبيعية .وفهمه الخاص للطبيعة البشرية.

نظام الدولة :

لايمكن للبشر ان يستمروا في العيش وفقا لحالة الطبيعة ،لانها في تناقض اساسي مع الغاية من العيش الا وهي حفظ البقاء ،الذي لابد ان يقود الى صراع لاينقطع بين بني البشر سيقود في النهاية الى خراب شامل وحياة بائسة ،لا امل فيها .

ومن ثم يظهر لنا بوضوح تام انه لكي يعيش الناس في امان وعلى افضل نحو ممكن ،كان لزاما عليهم ان يسعوا الى التوحد في نظام واحد ،وكان من نتيجة ذلك ان الحق الذي كان لدى كل منهم ،بحكم الطبيعة ،على جميع الاشياء ،اصبح ينتمي الى الجماعة،ولم تعد تتحكم فيه قوة الشخص وشهوته ،بل قوة الجميع وارادتهم . لكن هذه المحاولة من البشر سيكون مصيرها الفشل لو اصر كل واحد منهم على اتباع شهواتهم ،اذ ان قوانين الشهوة تحتم ان يسير كل فرد في اتجاه مختلف .

اذن يصبح من المحتم عليهم ان يتفقوا فيما بينهم عن طريق تنظيم وتعاهد حاسم ،على اخضاع كل شيء لتوجيهات العقل وحده ،وعلى كبح جماح الشهوة بقدر ماتسبب أضرارا للاخرين ،وعلى معاملة الناس بمثل مايحبون ان يعاملوا به ،وعلى محافظة على حق الاخرين كما لو كانوا يحافظون على حقهم الخاص .[٤٠]

ان العقد الاجتماعي هو الصياغة القانونية الاولى لتنظيم المجتمع الذي سيقود الى ظهور الدولة ، لانه سيكون بين الناس وبين من سيحكم بعد موافقتهم ،لكن اتفاق الناس فيما بينهم يمثل الجانب الاخلاقي من العقد لانه ينطوي على وعد ضمني من الجميع على ان تكون مصلحة الجماعة هي المقدمة قبل مصلحة الافراد .

لذا فان اتفاق الناس فيما بينهم هو نوعا ما اتفاق اخلاقي ،غير مشروط ،في حين ان الجانب القانوني من العقد ولكي يكون متينا ومضمونا وجب ان يبرم بشروط معينة فطالما ان احد لايترك مايعتقد انه خير الا املا في خير اعظم ،او خوفا من ضرر اكبر ،ولا يقبل شرا الا لتجنب شر اعظم منه او املا في خير اكبر ،وبعبارة اخرى يختار كل فرد مايبدو له اعظم الخيرين واهون الشرين انه قانون شامل ومسطورفي الطبيعة البشرية بقوة تحتم علينا ان نضعه بين الحقائق الابدية التي لايمكن لحد ان يغفل عنها .فهويعني بالخير مانعلم علما يقينا انه ينفعنا – واعني بالشر على العكس مانعلم علما يقينا انه يحول دون فوزنا بخير ما .[٤١]

وينتج عن هذا القانون ضرورة ان احدا لايمكن ان يعد بالتخلي عن الحق الذي له على كل شيء،ولايمكن ان يفي مطلقا بوعده هذا الا خوفا من شر اعظم او طمعا في

خير اكبر . ان صحة أي عقد رهن بمنفعته ،فاذا بطلت المنفعة انحل العقد في الحال ولم يعد ساريا ،ومن ثم يكون من الغباء ان يطلب انسان من آخر ان ياتزم بعقد الى الابد ،دون ان يحاول في الوقت نفسه ان يبين له ان فسخ العقد يضر من يفسخه اكثر مما ينفعه .وهذه نقطة مهمة للغاية في تأسيس الدولة .[٤٢]

ولو حكم الناس عقولهم فيما يفعلون ،وبالاخص في اهمية العقد واهمية الحفاظ عليه ،لأدركوا ان تأسيس الدولة يجلب لهم نفعا كبيرا ،وانه امر ضروري الى اقصى حد ،لما رضي احد منهم بالخداع ابدا ،ولحافظ الجميع على العقود بدقه لاحد لها ،وذلك رغبة منهم في الابقاء على هذا الخير الاسمى ،الذي هو المحافظة على الدولة ،والاهم من ذلك كله انهم عند ئذ سيحافظون على ولائهم ،وهو اقوى دعامة للدولة .[٤٣]

ان سبينوزا يدرك انه هنا يقدم نصيحة هي اقرب الى الوعظ الديني منها الى التشريع القانوني الملزم ،لكنه رجل منسجم مع نفسه بكل تاكيد فباعتباره فيلسوفا ،لم يكن من المتوقع ان يقول غير الذي قاله . وهو ذاته يدرك انه من غير المعقول ان نفترض ان الناس تهتدي بالعقل وحده اذ تسيطر على كل فرد شهوته ،وكثيرا مايسطر عليه البخل والغرور ،والحسد والكراهية الى حد يستحيل معه سماع صوت العقل .[٤٤]

لكن ياترى ماهو النظام الامثل الذي يرى سبينوزا انه قادرمن بين الانظمة السياسية الممكنة على تحقيق التوازن بين الحق الطبيعي والصالح العام دون تعسف ؟ جواب سبينوزا واضح ومباشر :اظن اني وضحت بما فيه الكفاية مبادىء الحكم الدميقراطي الذي فضلته على انظمة الحكم الاخرى ... اردت الحديث صراحة عن نظام الحكم هذا لانه افضل نظام يوضح هدفي وهو بيان اهمية الحرية في الدولة، لذلك لن اتحدث هنا عن انظمة الحكم الاخرى .[٤٥]

وقبل ان استعرض مبررات سبينوزا لتفضيله هذا النوع من الحكم ،احب ان اوضح انه في الرسالة اللاهوتية – السياسية لم يتطرق الى انواع الحكم الاخرى ،كما قال ،والسبب كما يبدو لي هو ان ضغط الاحداث السياسية على اقرب اصدقائه السياسيين (دي فيت) الجمهوري المتحمس جعلته يسهب في الحديث عن النظام الجمهوري وافضليته ،لان الجمهورين بزعامة(دي فيت) في ذلك الوقت اصبحوا محشورين في الزاوية من قبل المحافظين الذين القوا بالائمة على الجمهوريين بالأزمة الاقتصادية التي المت بهولندا ،فسبينوزا هنا انما يناصر نظاما قائما بالفعل

،وليس نظاما نظريا قادته اليه مقدماته الفلسفية ،والا لكان يتوجب عليه ان يستعرض الأنظمة الاخرى. لكن هذا لايعني ان سبينوزا انحدر هنا الى دعاية أيديولوجية للجمهوريين الهولنديين ،لانه حافظ على منهجه العقلاني الرصين في طرح ومناقشة الافكار . وعلى اية حال فانه قد استشعر هذا النقص فرجع في (الرسالة السياسية) التي لم يتمها الى مناقشة الأنظمة الاخرى وهي الارستقراطي و الملكي ولنرجع الى المبررات التي يقدمها سبينوزا في أفضلية النظام الجمهوري على الأنظمة الاخرى .فيعرض الشرط الذي يمكن ان يتكون به مجتمع انساني دون ادنى تعارض مع الطبيعي ، ويمكن به احترام كل عقد احتراما تاما .هذا الشرط هو :

يجب على كل فرد ان يفوض الى المجتمع كل ماله من قدرة ،بحيث يكون لهذا المجتمع الحق الطبيعي المطلق على كل شيء ،أي السلطة المطلقة في إعطاء الأوامر التي يتعين على كل فرد ان يطيعها اما بمحض اختياره ،واما خوفا من العقاب الشديد .ويسمى نظام المجتمع الذي يتحقق على هذا النحو بالديمقراطية.التي هي اتحاد الناس في جماعة لها حق مطلق على كل مافي قدرتها .[٤٦]

وهذا يقود الى النتيجة المنطقية الاوهي وجوب الخضوع للحاكم ،لانهم فوضوه بموجب العقد كل قدرة كانت لديهم في المحافظة على انفسهم أي حقهم الطبيعي كله ،وبعد ان يتم هذا الخضوع المطلق ،سواء كان ذلك تحت ضغط الضرورة ام بالإكراه ،ام طبقا لمقتضيات العقل نفسه ،الذي يدعونا الى الإبقاء على هذا النوع من التنظيم بكل قوانا ،فإننا نصبح ملزمين بان ننفذ كل مايامر به الحاكم ،حتى لو كانت اوامره غاية في التناقض ،لان هذا مايامرنا به العقل لانه يعني اختيار اهون الشرين . لكن من النادر ان يعطي الحكام – في ظل هكذا نظام – اوامر متناقضة ،لان فطنتهم وحرصهم على الاحتفاظ بالسلطة تجعلهم يهتمون الى اقصى حد بالسهر على المصلحة العامة ،وتوجيه دفة الامور جميعا وفقا لاحكام العقل .وكما يقول(سينيكا)الفيلسوف الرواقي المعروف :لم يستطع احد ان يستمر في الحكم طويلا عن طريق العنف . فضلا عن ذلك فان الخوف من القرارات المتناقضة يقل في نظام الحكم الديمقراطي بوجه خاص وذلك لسببين :

الاول :انه يكاد من المستحيل ان يتفق اغلبية الناس ،داخل مجتمع كبير على امر ممتنع .

الثاني :ان الغاية التي ترمي اليها الديمقراطية ،والمبدأ الذي تقوم عليه هو ،تخليص الناس من سيطرة الشهوة العمياء والابقاء عليهم بقدر الامكان في حدود العقل بحيث يعيشون في وئام وسلام .حيث يقضون حياتهم في طمأنينة ووحدة.[٤٧]

الحرية أذن براي سبينوزا هي الهدف النهائي للدولة، وهي ما يتوقف عليها ترقية ونمو الافراد، ولكن ماذا يفعل الناس لو كبتت القوانين النمو وخنقت الحرية، وماذا يفعل الناس لو أتجهت الدولة الى إيثار مصلحة الطبقة الحاكمة والتسلط على الشعب واستغلاله، وسعت الى الاستئثار بالسلطة، وعدم إفساح المجال لغيرهم ،هنا يؤكد سبينوزا في إجابته على هذه الأسئلة ، بوجوب إطاعة القوانين حتى لو كانت جائرة ، مادامت الحكومة لاتمنع الناس من حرية الكلام والاحتجاج فالنقد في النهاية ،سيؤدي الى تغيير الاوضاع بالوسائل السلمية الى الأفضللكن ربما يكون الاعتراض الأساسي حول طاعة القوانين مهما كانت جائرة ، حتى لايختل نظام الدولة ، فان سبينوزا يحيل الرعايا الى عبيد . لكنه يرد بشكل حاسم ،وكنتيجة من مقدماته الفلسفية المفترضة . فالفرد الذي تسيطر عليه شهواته الى حد انه لايستطيع ان يرى او يفعل ما تتطلبه مصلحته الحقيقية ،يكون في احط درجات العبودية ،اما الحر فهو الذي يختار بمحض ارادته ان يعيش بهداية العقل وحده .والنظام الديمقراطي هو الذي يتيح للمواطنين ان يكونوا احرارا ففي مثل هذه الدولة يستطيع كل فرد ان يعيش بمحض اختياره وفقا للعقل ،وبالتالي يكون اكثر حرية من الذي توجهه شهواته الخاصة . ان المواطن هو من ينفذبناءا على اوامر الحاكم ،افعالا تحقق المصلحة العامة ،وبالتالي مصلحته الشخصية .[٤٨]

لكن لو زادت الحكومة في مكافحة حرية الكلام وخنقها، لزاد عناد الشعب في مقاومته لها وسوف نجد أولئك الناس الذين تدفعهم، ثقافتهم ،وأخلاقهم، وفضائلهم الى إعتناق الحرية، هم الاكثر تصدياً من أولئك أصحاب المال والشره والطمع .

ان الحرية في الكلام والنقد، تجرد التمرد من جميع مبرراته ومسوغاته،وبرأيه إذا نال الناس الحرية، فلن يضيرهم أي نوع من انواع الحكومة ، سواء كانت ديمقراطية أو ارستقراطية أوملكية أوغيرها .وبالرغم إنه يميل الى تفضيل الحكومة الديمقراطية كما مر بنا ، فهو يؤكد ان أي نوع من أنواع الحكومة التي قام باستعراضها في (الرسالة السياسية)تفي بالغرض ما دامت تستهدف تربية الفرد وتوجيهه الى تفضيل حق المجتمع على المصلحة الخاصة وهو يصف الحكومة الملكية بأنها قادرة لكنها

قد تكون مستبدة وظالمة وعسكرية ،وهو يعارض وضع السلطة في يد رجل واحد يقول :يظن الناس إن وضع السلطة كلها في رجل واحد ،يؤدي الى السلام وتوطيد الامن وتوحيد الصفوف في الدولة.وهو بهذا يقارن الرجل الواحد برب الأسرة الذي له الحق وحده في توجيه أسرته وأدارته لافراد الاسرة كأنهم عبيد، وهو من هنا يوضح لنا ان وضع السلطة في يد رجل واحد يؤدي الى العبودية لا السلام ،لذا فهو يعتبر الديمقراطية أفضل انواع الحكم لان الحكومة الديمقراطية تمتد سلطاتها الى أعمال الناس والى عقولهم وتفكيرهم ،ولكون الناس يختلفون من حيث المبدأ بطرائق تفكيرهم فأن صوت الأكثرية في هذه الحالة هو القانون الذي يجب ان يسود.[٤٩]

ويرى سبينوزا ان تصحيح خطأ الدولة التي ابتعدت عن العقل ،انما يتم بواسطة الثورة ، والثورة حينئذ يكون لها دعامة قانونية لانها تطيح بالحكومة التي تفشل في ابعاد الخوف وتحقيق الحرية للمواطنين وتوفير الحياة المطمئنة لهم ان حرية التفكيرهي من الحقوق الطبيعية والقدرات التي لا يمكن لأي فرد تفويضها لغيره بأيّ حال من الأحوال، لأنّ عقل الإنسان لا يمكن أن يقع تحت سيطرة أي إنسان آخر. يمكن للدولة أن تخضع العقول لمشيئتها إلاّ بالعنف، وتكون أشدّ عنفا عندما تقف ضدّ حرية التفكير، وقد تذهب في ذلك إلى حد إصدار أحكام بالإعدام على من يخالفونها الرأي، ولكنّ هذه الأحكام تظلّ مخالفة للعقل السليم الذي هو مبدأ تأسيس الدولة ذاتها. وهذا ما جعل سبينوزا ينكر على الدولة حقّها المطلق في ذلك .وإذا كان الحقّ في التفكير الحرّ لا يفوض، فما المانع من سحب هذا الحكم على الحقوق الطبيعية الأخرى ؟ وإذا كان الحقّ عند سبينوزا مرادفا لمفهوم القدرةاو القوة ، فهل يمكن تفويض القدرات للغير؟. وإذا ثبت أنّه من غير الممكن ولا من الجائز تفويض القدرات للغير، فما الذي يجب تفويضه ؟ يمكن القول في ضوء نتائج التحليل التي توصّل إليها سبينوزا في الفصل السابع عشر والاخير من رسالته في اللاهوت والسياسة إنّ ما يمكن للأفراد تفويضه للسلطة العليا التي تمثّل إرادة الجماعة هي سلطة القرار في كل ما يتعلّق بكيفية استعمال القدرات وتقييم نتائجها.لكن بشكل عام فان لا احد يستطيع تفويض كل مايملك الى السلطة العليا ،لان هذا التفويض ليس ضروريا وليس عمليا ايضا .[٥٠]

الدولة والحرية :

ان من يقرءا الفصل الاخير من رسالة في اللاهوت والسياسية ، يشعر وكأن سبينوزا يكتب منشورا سياسيا ثوريا ،لايقبل الجدل وانما التنفيذ والالتزام ،لان القضية بالنسبة له محسومة تماما ،فالعقل يقود الى الديمقراطية ،والديمقراطية الى الحرية . واذن فلا مجال ان تكون الدولة ديمقراطية وبنفس الوقت معادية للعقل او الحرية فهوامر يرفضه المنطق السليم ان ذهن الانسان لايمكن ان يقع تحت سيطرة أي انسان اخر ،اذ هذه من الامور التي لايمكن تفوض الى الاخرين .وعلى ذلك فكل سلطة تدعي

انها تسيطر على الاذهان انما يكون هذا بالعنف قطعا . فليست الغاية القصوى للدولة أن تهيمن على الناس، ولا أن تكبح جماحهم بالرهبة، بل أن تحرر الإنسان من الخوف، حتى يعيش ويعمل آمناً مطمئناً كل الاطمئنان، دون أن يلحق به أو بجاره أي أذى. وليست غاية الدولة أن تجعل من الكائنات العقلانية حيوانات ضارية وآلات (كما هو الحال في الحرب) ، بل تمكين أجسامهم وأذهانهم من أداء وظيفتها في أمان، أن غايتها أن توحد الناس ليعيشوا على العقل السليم الصادق ويمارسوه.... أن غاية الدولة حقاً هي الحرية.[٥١]

ان سبينوزا يكاد ان يكون مهوسا بفكرة الدولة واهميتها في التنظيم الاجتماعي ،ان فكرة الدولة ،نتيجة لازمة من كون الانسان عاقل او يسترشد بالعقل الذي يقود تلقائيا الى تشكيل الدولة فلو زالت الدولة لكان معنى ذلك زوال كل شيء خير وضياع الامن في كل مكان ،ولانتشر الرعب والفسوق ،وعم الفزع في كل مكان .ويترتب على ذلك ان حب الجار لابد ان يكون فسوقا اذا ادى الى الإضرار بالدولة ،وان الفعل الفاسق يكتسب بعكس ذلك ،طابع التقوى لو كان يؤدي الى المحافضة على الدولة بل ان سبينوزا يذهب الى ماهو ابعد من ذلك فيقول :ان من واجب الفرد ان يفعل ذلك ان اراد ان يكون عادلا تقيا .ذلك ان العدالة، تتعلق بمشيئة السلطة العليا وحدها ،بحيث لايمكن لاح دان يعدل دون ان يكون سلوكه مطابقا لقراراتها . اما التقوى فأن اسمى مظاهرها هي تلك التي تؤدي الى سلامة الدولة وامنها الداخلي .وهو امر لن يتحقق لو عاش كل فرد هواه . فمن الفسوق اذن ان يفعل المرء شيئا طبقا لرايه الخاص ضد مشيئة السلطة العليا التي يعد هو احد رعاياها ،اذ انه لو استباح الجميع لأنفسهم ان يفعلوا ذلك لادى هذا الى انهيار الدولة .[٥٢]

ياترى هل يحق لنا القول ان هذا التقديس لفكرة الدولة من قبل سبينوزا هو تعبير عن شعور الاقليات بالخوف من انعدام نظام ما في المجتمع ، اذا اخذنا في الحسبان ان سبينوزا كان يهوديا ينتمي الى (المارانيين) وهم يهود اسبانيا الذين اجبروا على التحول الى الكاثوليكية بمعد ان اكرهوا على الظهور كمسيحيين ،لكنهم بقوا يهودا في الخفاء . وكل هذا قد انتهى بعد ان حطوا الرحال في هولندا . فلا غرابة ان نقرا هكذا دفاع من مفكر حريص على العيش بهدوء وسلام عن نظام تحكمه القوانيين التي يجب ان تطاع مهما كان الثمن لان غياب النظام سيدفع ثمنه الاقليات قبل غيرهم وسيكونوا هم الاكثر استهدافا كونهم الاضعف . لكنه يريدها دولة ديميقراطية مثلما هو النظام القائم فعلا في هولندا في ذلك الوقت فهو دفاع عن نظام قائم بالفعل وليس مجرد فكر نظري .وهذا مايبدوا واضحا في نهاية هذا الفصل حيث كتب يقول :انني اقدم عن طيب خاطر كل ماكتبت الى السلطات العليا لوطني لكي تفحصه وتحكم عليه . فأن بدت لها احدى قضاياي معارضة لقوانين او ضارة بالمصلحة العامة ،فأني اتراجع عنها .ذلك لاني ادرك انني بشر وان من الممكن ان اكون قد اخطأت.[٥٣]

لان هذا النظام يكون اكثر انسجاما مع العقل ،وبالتالي يكون اكثر حرية ،لان الخضوع للعقل تجعل الانسان حرا اكثر من أي شيء اخر .لان العقل جزء من طبيعة الانسان ،وبالتالي يقود الى السلام ويقود الى الحرية ،ولكن من خلال الدولة . اذ ان السلام لايتحقق الا من خلال احترام القوانين السائدة في الدولة ،والنتيجة كلما ،اخضع الإنسان نفسه لهداية العقل – بمعنى كلما كان حرا – زاد حرصه واحترامه لقوانين الدولة التي يعيش فيها . انها نقطة افتراق سبينوزا عن هوبز ، فالعقل لاوجود له في حالة الطبيعة عند هوبز والاحتراب ، اوحرب الجميع ضد الجميع ،هو الحالة السائدة ،ولا يصبح انسانا بحق او (الها) كما يصفه الا في حالة قيام المجتمع . في حين ان سبينوزا يعتبر ان العقل جزء من طبيعة الإنسان الأساسية ،حتى وان كان هناك من لايسير بهديه ومثلما ان الحرية التي هي معطاة كحق طبيعي للانسان ،لايعني ان الجميع يمارسها بشكل تلقائي ،لأن هناك الكثير من الناس ممن امتلأت عقولهم بالافكار المسبقة تجعلهم ينساقون ويقعون تحت سلطة الاخرين ويتبعونهم فكريا .[٥٤]

سبق وان قلت في بداية هذه الفقرة ان سبينوزا في هذا الفصل يبدوا وكانه يقدم منشورا سياسيا ،واوكد هنا ان هذا الفصل صاغته الاحداث السياسية التي عصفت بهولندا في ذلك الوقت ،وما بدا لفيلسوف عاقل مثل سبينوزا ماينبغي قوله وفعله في هذه الإحداث .وكأنه كان وببصيرة نافذة يتنبأ بما سيؤول اليه مصير صديقه وراعيه والمدافع القوي عن اللنظام الجمهوري رئيس الوزراء (دي فيت). فنقرأ **نبوئة سبينوزا :**

انها لمصيبة فادحة ان يعامل بعض الافراد على انهم بعض اعداء الدولة ويساقون الى الموت بلا ذنب ارتكبوه وبلا جرم اقترفوه ،بل لمجرد كونهم يعتزون بشخصيتهم بحيث تصبح المقصلة ،التي يرتعش لها الاشرار ،مسرحا عظيما تمثل عليه ادوار رائعة من الشجاعة وقوة التحمل على حين لايلحق بالسلطة العليا الا العار . ذلك ان من يعلم برائته لايخاف الموت كما يخافه المجرمون ،ولايطلب العفو ،ومن لايعذبه تأنيب الضمير لذنب اقترفه يقبل الموت في سبيل غاية نبيله على انه شرف ،لا عقاب ،ويصبح عضيما حقا لانه ضحى بحياته في سبيل الحرية . فأي مثل يعطيه هؤلاء بموتهم الذي لايفهم سببه الاغبياء والجبناء ،ويحقره دعاة الفتنة .[٥٥]

والآن ساستعرض التسلسل المنطقي لحجج سبينوزا في ان الحرية ، والنظام الدميقراطي الجمهوري صنوان ،لانه يوفر للناس ان يعيشو بسلام بالرغم من اختلافهم وتعارضهم في الآراء .ذلك ان النظام الديمقراطي هو افضل الطرق للحكم ، بل انه أكثر اتفاقا مع الطبيعة الإنسانية ،وأقربه الى حالة الطبيعة .

لانه اذا كان من الممكن تصور عبودية الأذهان في اللنظام الملكي فأن هذا الاحتمال مستبعد تماما في نظام الحكم الديمقراطي ،حيث يشارك الشعب كله او معظمه في السلطة الجماعية .[٥٦]

ان حرية التفكير ناتجة عن حق طبيعي اسمى ،فلا يمكن ان يتخلى احد عن حريته في الراي والتفكير كما يشاء ،فهذه من الحقوق التي لايتنازل عنها حين تم ابرام العقد الاول المفترض بين الناس وبين من يحكمهم . اذن لايمكن لاي سلطة ان ترغم الناس الذين هم بالطبع مختلفي الاراء ،بل وأحيانا متعارضة . على ان يرددوا ماتقرره السلطة يؤدي الى عواقب وخيمة لان الناس ،والأذكياء منهم بشكل خاص ،لايمكنهم ان يلزموا الصمت . ذلك ان من العادات الشائعة بين الناس انهم يبوحون بنواياهم للآخرين ،حتى في الحالات التي يحسن فيها الكتمان . والدولة لاتستطيع ان تقوم بهذا المنع الا عن طريق العنف .ومع ذلك فان سبينوزا لاينكر ان السلطة يمكن ان يطعن فيها بالأقوال كما يطعن فيها بالافعال . والدولة لاتستطيع ان تفعل شيئا مع الاول فهي لاتستطيع ان تسلب الافراد حريتهم في التعبير بشكل كلي . فأن من الخطورة التسليم لهم كلية.[٥٧]

وهنا يضع سبينوزا صمامات الامان ،التي تكفل السلام والامن للجميع من ممارسات وفكار منفلته ،باسم الحرية .لانه يبين الى أي حد يمكن ويجب التسليم بهذه الحرية دون ان يكون في ذلك تهديد لسلامة الدولة . فكيف يبرر سبينوزا ذلك ان الغاية القصوى من تاسيس الدولة ليست السيادة ،او ارهاب الناس ،او جعلهم يقعون تحت نير الاخرين ، بل هي تحرير الفرد من الخوف بحيث يعيش كل فرد بأمان بقدر الامكان ،أي يحتفظ بالقدر المستطاع بحقه الطبيعي في الحياة والعمل دون الحاق الضرر بالغير .ان الغاية من الدولة ليست تحويل الموجودات العاقلة الى حيوانات ا والى آلات صماء ،بل المقصود من الدولة هو اتاحة الفرصة لابدانهم واذهانهم كيما تقوم بوضائفها كاملة في امان تام ونظرا الى ان من المستحيل ان يفكر الناس كلهم ويعبروا عن افكارهم بطريقة واحدة ،فلايمكن لهم ان يعيشوا بسلام لو لم يتخلى كل فرد عن حقه في ان يسلك وفقا لما يمليه عليه قراره الشخصي .وعلى ذلك فأن الحق الوحيد الذي تخلى عنه الفرد هو حقه في ان يسلك كما يشاء ،وليس حقه في التفكير . وعلى ذلك فأن كل من يسلك ضد مشيئة السلطة العليا يلحق بها الضرر،ولكن يبقى باستطاعة المرء ان يفكر بحرية وان يصدر حكمه على الاحداث والاشياء ،بمعنى ان يستطيع الكلام بحرية تامة ،لكن هنا يشترط سبينوزا ان لايتعدى ذلك حدود الكلام او الدعوة ،وان يكون اعتماده على العقل فقط ،وليس بإتباع أساليب الخداع ،او اثارة الأحقاد والكراهية ويضرب سبينوزا لذلك مثلا فيقول :مثلا ان شخصا بين تعارض احد القوانين مع العقل ،واعرب عن رأيه بضرورة الغائه ،وفي الوقت نفسه عرض رأيه على السلطة العليا لتحكم عليه ،وذلك باعتبارها وحدها التي لها الحق في الغاء القوانين ،وتنتهي محاولته هنا ،فانه براي سبينوا سيكون جديرا بلقب المواطن الصالح ،وبثناء الدولة عليه . اما اذا كان الهدف من تدخله هو اتهام السلطات العامة بالظلم وجعلها مثارا للغضب ،او حاول الغاء القانون رغما عن السلطة عن طريق

اثارة الفتن فانه يكون مشاغبا وعاصيا .ان الإفراد بإمكانهم ان يعبروا عن افكارهم بحرية ،شرط ان لايشكل ذلك تهديدا للسلم الداخلي .[٥٨]

لانه وكما ذكرت سابقا لو اباح الجميع لأنفسهم ان يفعلوا وفق أهوائهم مايشائون تحت ستار الحرية لادى هذا السلوك الى انهيار الدولة ذاتها .ولم يتبقى على سبينوزا الا ان يحدد الآراء التي يؤدي التصديق بها الى زعزعة امن الدولة واستقرارها .والتي هي على الضد من العقد الاجتماعي الذي قام بين الدولة ورعاياها .والذي تخلى الافراد بموجبه عن حقهم في ان يفعلوا مايشائون .وهذه الاراء تكون مدعاة للفتنة ،ليس بذاتها بل بما يترتب عليها من سلوك وافعال .

وبالطبع لايفوت سبينوزا ان يذكر بأن لاتتخذ السلطة هذه الذريعة للتدخل بكل صغيرة وكبيرة لحياة الناس عن طريق الاكثار من التشريعات والقوانين .لان من يريد تنظيم الحياة السياسية كلها بالقوانين يزيد من حدة العيوب دون ان يقومها ،ومن الافضل السماح بما لانستطيع منعه مهما كان الضرر الناتج عن ذلك . فنحن مثلا نعرف العواقب المترتبة على الترف والحسد والشهوة و(الثمالة) وما شابهها من الانفعالات ،ومع ذلك نسمح بها لأننا لانستطيع إلغائها بسلطة القانون ،مع إقرارنا بأنها رذائل . ويضيف سبينوزا بشبه استدراك انه ايضا لايوجد ضرر واحد ينتج عن حرية التفلسف لاتستطيع الدولة ان تتجنبه .أليست الحرية شرطا أساسيا لتقدم العلوم والفنون ؟ انها لاتتقدم تقدما ملموسا الا على ايدي أناس تخلصوا من المخاوف وأصبحت لهم حرية الحكم .[٥٩]

ولا أظنني مخطئا ان قلت ان سبينوزا كتب هذا الكلام من وحي تجربته الشخصية التي كانت مليئة بالتحديات التي اجتازها بكل شجاعة ورباطة جأش ومنها تجربة الحرمان والطرد من طائفته ،فقد قبل هذا الطرد في سبيل ان يبقى حرا في تفكيره ،سيما اذا عرفنا انه شرع في كتابة رسالة لاهوتية سياسية في هذا الوقت بالذات .وكتب سبينوزا ردا على المجمع يدافع فيه عن موقفه ،لم يعثر على اصله ،والمرجح ان جزءا من هذا الرد يتخلل الرسالة و هذا الفصل بالذات .[٦٠]

وفضلا عن ذلك فان من يتوقع من جميع الناس تكرار نفس الأقوال التي تلقن لهم يكون واهما بحق ،فالواقع يثبت عكس ذلك ،اذ انه كلما حاول المرء سلب الناس حريتهم في التعبير استثار مقاومتهم .فما اكثر الفرق التي نشأت داخل الكنيسة عندما أرادت السلطات العامة وضع حد لجدل رجال الدين بواسطة القوانين . ويستشهد سبينوزا بمدينة أمستردام كمثال ناجح على شيوع اجواء الحرية فقد جنت هذه المدينة ثمار الحرية ،فنالت من ذلك فائدة عظيمة ،وحازت برأيه إعجاب جميع الأمم الأخرى ففي هذه الجمهورية المزدهرة وفي هذه المدينة الرائعة يعيش الناس من كل جنسية ومن كل طائفة في وفاق كامل ،واذا أراد احد ان يستدين فأن الناس يسألون فقط أن كان غنيا اوفقيرا ،جديرا بالثقة ام مشهورا بالخداع ،ولا يهمهم معرفة دينه او مذهبه ،لان هذه الاعتبارات ليس لها اعتبار امام القضاء .وفي نفس الوقت فلا توجد

طائفة مهما كانت مكروهة،لايتمتع انصارها بحماية السلطة العامة لها – بشرط ان لاتسبب أي ضرر لاي فرد – ان الامثلة العديدة تثبت لنا ان القوانين الموضوعة لانهاء الجدل الديني تثير الناس اكثر مما تصلحهم ،وان كثيرا من الناس يتخذون هذه القوانين ذريعة ليفعلوا مايشاءون .ان الانقسامات الدينية الى شيع وطوائف لاينشأ عن رغبة صادقة في معرفة الحقيقة - لان هذه الرغبة تؤدي الى الطيبة والتسامح وليس التعصب الأعمى والعنف – بل ان هذه الانقسامات ناتجة عن شهوة عارمة الى الحكم . ومن ذلك يتبين لنا بوضوح لايقبل أي شك ان دعاة الفتنة هم اولئك الذين يدينون كتابات الآخرين ويثيرون غضب الشعوب ضد مؤلفيها . ان مثيري الشغب الحقيقيين هم اللذين يريدون في دولة حرة القضاء على حرية الرأي،التي لايمكن قمعها .[٦١]

ان الدين يجب ان يبقى مقصورا فقط على ممارسة العدل والإحسان .ون أرادت الدولة ان تتدخل في هذا الشأن فيجب ان ينصب تشريع السلطة العليا على الافعال والممارسات فقط وليس على الافكار ،اذ يجب ان يترك لكل فرد حريته في التفكير والتعبير .[٦٢]

وهذه هي النقطة الوحيدة التي عدها الباحثون تناقض دعوته للحرية ، وهي ليست كذلك بالتأكيد فالنص واضح ،انه يطلب من الدولة ان تحاسب الإفراد على أفعالهم ان قادت الى ضرر بالمصلحة العامة بما فيها الأفعال التي تتسم بطابع ديني .لكن بكل تأكيد يجب ان لانغفل ان الافعال والممارسات ذات الطابع الديني انما هي وليدة افكار دينية ،فالعنف الديني ،والحروب الدينية ،والقتل ،انما هي وليدة فكر يبيح هذه الممارسات بل ويباركها .وبالتالي فأن سبينوزا هنا على العكس مما يدعيه منتقدوه يبدوا اكثر تسامحا من كثير من التشريعات في دول ليبرالية عتيدة تحد من نشر وترويج أفكار ربما تقود الى ممارسات عنيفة .

الحقيقة ان سبينوزا لم يكن بعيدا على الاطلاق عن الواقع الهولندي في ذلك الوقت ،وهذا الفصل ،كتبه سبينوزا وعينه على الواقع والأحداث التي تجري امام عينه وبحسه الفلفسي يستشعر الخطر الكامن خلف هذه الاحداث .فعلى الرغم من جو التسامح الذي يسود في هولندا الا ان الجدالات والمنازعات اللاهوتية بين مختلف الطوائف المسيحية لم تنقطع ،صحيح ان هناك نوعا من التعايش السلمي الى حد ما بين مختلف الطوائف ،وكان هذا امرا فريدا في اوربا القرن السابع عشر ،الا ان التسامح لم يكن كليا ،وسبينوزا يدرك قبل غيره هذه الهشاشة في الجمهورية الوليدة على الصعيدين السياسي والديني .من هنا نستطيع ان نفهم هذا الدفاع المستميت عن الحرية من قبل سبينوزا في اكثر الدول الأوربية تحررا وتسامحا .

والدليل على هذه الهشاشة هو ادانة الكتاب الذي كتب فيه سبينوزا هذا الكلام وتحريمه . ليس من قبل الدولة بكل تاكيد ،بل من قبل الكنيسة ،فحتى لو كانت الدولة متسامحة فأن الكنيسة لم تكن كذلك، لقد كانت هناك تفاوت كبير بين الليبرالي

الجمهوري المتنور (دي فيت) وبين رجال الدين من جهة ،وبين المحافظين انصار الملكية وعائلة (الأورانج) من جهة أخرى ،وهو التفاوت الذي قاد الى النهاية المروعة لصديق سبينوزا وراعيه (دي فيت) . اذن كانت الحرية مهددة ،وسبينوزا بحدسه الفلسفي يدرك ذلك ،فقد حصل كل ماكان يخشاه بعد سنتين فقط من صدور كتابه ،فقد غزت الجيوش الفرنسية هولندا واطاحت بالنظام الجمهوري وعادت الملكية المحافظة المدعومة دينيا . وهكذا صدقت كل تنبؤات سبينوزا .

المصادر :

اولا- مؤلفات سبينوزا :

١- Spinoza, Political Triteas

٢- - سبينوزا – الرسالة اللاهوتية السياسية ،ترجمة د.حسن حنفي ،مراجعة فؤاد زكريا ، الهيئة المصرية للكتاب

٣- سبينوزا- علم الأخلاق ،ترجمة جلال الدين سعيد ،المنظمة العربية للترجمة،بيروت ط١ ٢٠٠٩.

ثانيا – المصادر العربية :
١- - د. فؤاد زكريا ، اسبينوزا ، دار التنوير –بيروت ٢٠٠٨
٢- سبينوزا،سلسلة اعلام الفكر الغربي ،ترجمة عقيل حسين ،بيروت ط١ دون تاريخ
٣- أميل برهييه – تاريخ الفلسفة – القرن السابع عشر،ترجمة جورج طرابيشي ،دار الطليعة بيروت ،بيروت ط١ ١٩٨٣
٤- هاشم صالح : مدخل إلى التنوير الأوربي ،دار الطليعة بيروت ،ط١٢٠٠٥
٥- يوسف كرم , تاريخ الفلسفة الحديثة , دار المعارف مصر – ١٩٦٢
٦- برتراند رسل – تاريخ الفلسفة الغربية – الكتاب الثالث ،ت- محمد فتحي الشنيطي ،الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٧
٧- توماس هوبز – اللفياثان ، الاصول الطبيعية والسياسية لسلطة الدولة،ترجمة ديانا حرب وبشرى صعب ،مراجعة الدكتور رضوان السيد ،هيئة ابو ظبي للثقافة – كلمة ٢٠١١
٨- هيجل ، محاضرات في فلسفة التاريخ ، الجزء الاول :العقل في التاريخ ، ت. د.امام عبد الفتاح امام ، . دار التنوير .بيروت- دون تاريخ .
٩- انتوني بلاك . الغرب والاسلام – الدين والفكر السياسي في التاريخ العالمي – ت د.فؤاد عبد المطلب. عالم المعرفة – الكويت -٢٠١٢
١٠- بيار- فرانسوا مورو – اسبينوزا والاسبينوزية – ترجمة جورج كتورة ،دار الكتاب الجديد المتحدة – بيروت – لبنان ط١ ٢٠٠٨

-ثالثا - المصادر الاجنبية :

١- Hasana Sharp. Spinoza and the politics of Renaturalization. The university of Chicago Press.٢٠١١ -٤

٢– Justin Rogers- Crowds and Spinoza's concept of the Political. In Mediations. Journal. Vol.٢٥.No.٢.٢٠٠٧ -٥

٣-the philosophy of Spinoza- selected from his chief works,ed.by,Josph Ratner.NewYork.١٩٢٦ -٦

٤- Klever, Wim - Spinoza's Life and Works, *Cambridge* - *Companion to Spinoza*. Cambridge,١٩٩٦ -٧

٥-Petry.Michael. Hobbes and the Early Dutch Spinozists,in – Spinoza's Political and Theological Thought, Ee.C.De Deugd Amsterdam.١٩٨٤ -٨

٦- L.S.Feuer. Spinoza and the Rise of Liberalism .Boston. - Beacon Press. ١٩٥٠

رابعا- مواقع الكترونية:
١- www.ivsl.org – وهو موقع المكتبة الافتراضية التي انشاتها وزارة التعليم العالي

Dutch_Republic.htm -٢

STANFORD- first published .٢٠٠٨.artical.Spinoza, - -٣
ENCYLOPDIA OF PHILOSOPHY.، اعتمدت على النسخة الالكترونية من
هذه الموسوعة .

الهوامش

[١] - Hassan Sharp. Spinoza and the politics of Renaturalization. The university of Chicago Press.٢٠١١. واطلاعي على هذا الكتاب لم يكن بشكل مباشر وانما من خلال العرض الذي قدمه له ، Andre Santos Camposاستاذ الفلسفة في جامعة لشبونة – البرتغال في مجلة –٢٠١٢-١.Sprninger.p،المتخصصة بعرض الكتب ،وهذه المجلة موجودة على موقع المكتبة الافتراضية التي أنشأتها وزراه التعليم العالي العراقية .والموقع هو :.www.ivsl.org

[٢] - الدكتور فؤاد زكريا ،اسبينوزا ،دار التنوير – بيروت ٢٠٠٨، ص٢٢١ .

[٣] - انظر على سبيل المثال:
– Justin Rogers- Crowds and Spinoza's concept of the Political. In Mediations Journal. Vol.٢٥.No.٢.٢٠٠٧. وهذه المجلة تعنى بالأدبيات الماركسية وهي متاحة بمجلداتها المختلفة على موقع المكتبة الافتراضيةايضا.

[٤] - the philosophy of Spinoza- selected form his chief works,ed.by,Josph Ratner.New york١٩٢٦. P.xiii ايضا انظر : سبينوزا،سلسلة اعلام الفكر الغربي ،ترجمة عقيل حسين ،بيروت ط١ دون تاريخ ، ص ١٠-١٢ . وهذه الترجمة خلت من اسم المؤلف.ايضا انظر : اميل برهييه – تاريخ الفلسفة – القرن السابع عشر،ترجمة جورج طرابيشي ،دار الطليعة بيروت ،بيروت ط١ ١٩٨٣ ص٧-١٤.

[٥] - Ratner.op.cit.p.xxi. ,ايضا انظر :بيار – فرنسوا مورو – اسبينوزا والاسبينوزية ،ترجمة جورج كتوره ،دار الكتاب الجديد المتحدة – بيروت –لبنان ط١ ٢٠٠٨ صص٢٧-٢٩ .

[٦] - د. فؤاد زكريا ، اسبينوزا ، دار التنوير –بيروت ٢٠٠٨.ص٢٢-٢٣

[٧] - STANFORD- ENCYLOPDIA OF first published .٢٠٠٨.artical.Spinoza, PHILOSOPHY.، والهامش هنا يحيل الى النسخة الالكترونية الموجودة على موقع الموسوعة على شبكة الانترنت .

[٨] - Ibid.

[٩] - Ratner.op.cit.p.xiii-xiv. -ايضا سبينوزا، ص١٣-١٤

[١٠] - وتعرف أيضا باسم (الاقاليم السبعة المنخفضة) نشأت واستمرت بين سنة ١٥٨١-١٧٩٥ في نفس موقع المملكة الهولندية الحالية ،والتي تعتبر نفسها وريثة تلك الجمهورية . وكانت هذه الجمهورية من القوى العالمية الكبرى في القرن السابع عشر ،بعد ان نمت قوتها تدريجيا بعد ان نالت استقلالها من اسبانيا .فقد كان لها مستعمرات كثيرة ماوراء البحار مما فتح عليها بابا واسعا للموارد الاقتصادية ،وتحولت إلى مركز عالمي للتمويل .انهارت هذه الجمهور ية بعد ان قام الفرنسيين بغزوها سنة ١٧٩٥ هذه المعلومات من الموقع الرسمي لهولندا: Dutch_Republic.htm. .

[١١] - الحقيقة هو ليس رئيس وزاء بالمعنى المتعارف عليه الان ، فالاقاليم السبعة بعد ان استقلت كان كل اقليم يدار بواسطة حاكم ومجمع ،و(كاتب) وجان دي فيت كان يشغل منصب كبير الكتاب منذ العام ١٦٥٣وحتى العام ١٦٧٢ . مزيد من التفاصيل انظر: بيار- فرنسوا – المصدر السابق ،ص٢٤ .

[١٢] - Ratner.op.cit.p.xx-xxv.

[١٣] - Gilles Deleuze,Spinoza. P.١٤ والنص من كتاب هاشم صالح : مدخل إلى التنوير الأوربي ،دار الطليعة بيروت ،ط١ ٢٠٠٥ . ص١٩٦ .

[١٤] - Klever, Wim - Spinoza's Life and Works, *Cambridge Companion to Spinoza*. Cambridge,١٩٩٦,p. ١٣ff

[١٥] -يوسف كرم , تاريخ الفلسفة الحديثة , دار المعارف مصر – ١٩٦٢ ص١٢٠ .

[١٦] - Spinoza, Political Triteas.ch.x.sec.١.p.٥٥ هذه الرسالة توفي سبينوزا ولم يتمها ،ونشرت بعد وفاته مع كتابات اخرى من بينها كتابه الاخلاق من قبل مجموعة من اصدقائه، تحت عنوان (الكتابات المخلفه) . وهي منشورة ضمن الإعمال الكاملة التي حررها R.H.M.ELWES.٢.vols,Dover,Publication.New York.١٩٥١. والنسخة التي اعتمدت عليها نسخة الكترونية معتمدة على نشرة المحرر(الويس) وهي متوفرة على موقع المكتبة الافتراضية ،التي انشأتها وزارة التعليم العالي العراقية .وهو www.ivsl.org وستنشر هذه الرسالة قريبا لاني

على وشك ان افرغ من ترجمتها . وبالنسبة للاشارة الى الاقتباس من هذه الرسالة ،فان الرقم الاول يشير الى الفصل في حين ان الرقم الثاني يشير الى رقم الفقرة .

[١٧] - Petry.Michael. Hobbes and the Early Dutch Spinozists,in –Spinoza's Political and Theological Thought, Ee.C.De Deugd Amsterdam.١٩٨٤.pp.١٥٢ff .

[١٨] - بيار – فرانسوا ،اسبينوزا والاسبينوزية ،ص ٢٥ .

[١٩] - هذه المخطوطة اكتشفها الباحث الفرنسي (فان فلوتن) ويرجع تاريخ تاليفها الى١٦٦٢ تقريبا أي الى فترة مبكرة من حياة سبينوزا ، انظر : سبينوزا , علم الاخلاق ،ترجمة جلال الدين سعيد ،المنظمة العربية للترجمة،بيروت ط١ ٢٠٠٩ ،مقدمة المترجم ص١٠ .

وحول تاثير مفكري النهضة الايطالية على فلسفة سبينوزا ،انظر :سبينوزا،سلسلة اعلام الفكر الغربي ،ترجمة عقيل حسين ،بيروت ط١ دون تاريخ ، ص ١٦٦ ..

[٢٠] - نيقولا ميكيافللي , الامير . ترجمة محمد لطفي جمعة ،دار التربية للطباعة والنشر ،دون تاريخ ،العراق ط١ ص١٤٠ وماذكرته عن ميكيافللي في المتن حول الطبيعة البشرية يمكن استنتاجه بقراءة الفصل الخامس عشر والفصل السابع عشر من الامير.

[٢١] - سبينوزا ،الأخلاق ،ص ص ،٥٩-٦٠-٦٦ .

[٢٢] - سبينوزا ،الأخلاق . ص٢٣٠-٢٣١

[٢٣] - سبنوزا – الأخلاق ،ص٧٤-٧٥

[٢٤] - المصدر نفسه ،ص١٤٦

[٢٥] - Spinoza, Political- Triteas.ch.٢.sec.٤ .

[٢٦] - سبينوزا – الاخلاق ،ص١٤٥ . والمترجم يترجم العبارة ب(دولة داخل دولة)لكن عند مراجعتنا للنسخة الانكليزية من الاخلاق وجدتها تشيرالى المعنى الذي ثبته في المتن .:نظر: the philosophy of Spinoza- selected form his chief works, New york١٩٢٦. P.٢١١. لكن هذالا يعني التقليل من شأن ترجمة الدكتور جلال الدين سعيد على الاطلاق .

[٢٧] - Spinoza. Political Treaties op.cit. ايضا :الاخلاق ، ص ٧٦ .

[٢٨] - سبينوزا – الاخلاق ،ص١٤٦ .

[٢٩] - سبينوزا – الرسالة اللاهوتية السياسية ،ترجمة د.حسن حنفي ،مراجعة فؤاد زكريا ، الهيئة المصرية للكتاب ،١٩٧١.ص٣٧٧-٣٧٨

[٣٠] - برتراند رسل – تاريخ الفلسفة الغربية – الكتاب الثالث ،ت- محمد فتحي الشنيطي ،الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٧.ص٦٧

٣- سبينوزا ،الرسالة اللاهوتية السياسية ، ص٣٧٨ .

[٣٢] - الاخلاق – ص ١٥٨ .

[٣٣] - سبينوزا ،الرسالة اللاهوتية السياسية ، ص ٣٧٨-٣٧٩

[٣٤] - توماس هوبز – اللفياثان ، الاصول الطبيعية والسياسية لسلطة الدولة،ترجمة ديانا حرب وبشرى صعب ،مراجعة الدكتور رضوان السيد ،هيئة ابو ظبي للثقافة – كلمة ٢٠١١،ص١٣٨

[٣٥] - هوبز – المصدرالسابق ، ص١٣٤-١٣٦ .

[٣٦] - مفكرودبلوماسي هولندي له كتاب مشهور في الفكر السياسي هو: قانون الحرب والسلم – يعد اول من نظر للحق الطبيعي ، وتجريد الملوك من الحق الآلهي المزعوم . فالقانون الطبيعي هو نظام للعقل يامر بعمل وينهي عنه تبعا لاتفاقه او عدمه مع طبيعة الموجود العاقل .وهذه قاعدة لااعتساف فيها ولايقدر الله نفسه ان يغيرها . انظر: برهييه.تاريخ الفلسفة – القرن السابع عشر –ص٨-٩ .

[٢] - فؤاد زكريا ،مصدر سابق ،ص٢٢٨

[٣] - Spinoza,T.P.ch٢.sec.٣. -

[٣٨] - انتوني بلاك . الغرب والاسلام – الدين والفكر السياسي في التاريخ العالمي – ت د.فؤاد عبد المطلب – عالم المعرفة – الكويت ،٢٠١٢ ص٢٠٩ .
[٣٩] - فؤاد زكريا ،مصدر سابق ،ص٢٢٨ .
[٤٠] - سبينوزا – رسالة في اللاهوت و السياسية – ص٣٨٠ .
[٤١] - سبينوزا – الاخلاق ،ص٢٣٣ ايضا ص ٢٤٠ .
[٤٢] - سبينوزا – رسالة في اللاهوت و السياسية – ص٣٨٠-٣٨١
[٤٣] - نفسه –ص ٣٨٢ .
[٤٤] - نفسه – ص٣٨٢ .
[٤٥] - نفسه – ص٣٨٥ .
[٤٦] - سبينوزا – رسالة في اللاهوت – والسياسية ص٣٨٢ .
[٤٧] - Spinoza-T.P.ch.٥.sec.٢
[٤٨] - سبينوزا – رسالة لاهوتية – سياسية ،ص ٣٨٤-٣٨٥ .
[٤٩] - Spinoza-T.P.ch.٦.sec.٤.
[٥٠] - سبينوزا – رسالة لاهوتية – سياسية ،ص ٣٩٣ وما بعدها .
[٥١] - نفسه ،ص٤٤٧ .
[٥٢] - سبينوزا – نفسه – ص ٤٤٨
[٥٣] - سبينوزا – رسالة لاهوتية سياسية – ص ٤٥٤ .
[٥٤] - سبينوزا – نفسه ص ٤٤٥ .
[٥٥] - نفسه – ص٤٥١ .
[٥٦] - Spinoza. T.P. ch.sec.
[٥٧] - سبينوزا – رسالة لاهوتية سياسية – ص٤٤٦ .
[٥٨] - نفسه – ص٤٤٨ .
[٥٩] - سبينوزا – المصدر السابق ،ص ٤٤٩- ٤٥٠ .
[٦٠] - **see also:** L.S.Feuer. Spinoza and the Rise of Liberalism.Boston.Beacon Press. ١٩٥٠.p.٥ Ratner.op.cit.p.xviii ..
[٦١] - سبينوزا – رسالة لاهوتية سياسية – ص٤٥٠-٤٥٣
[٦٢] - المصدر السابق – ص ٤٥٤